

هكذا فهم الصحابة

بقلم
صالح أحمد الشامي



المكتب الاسلامي

هكذا فهم الصحابة

بِقِطْمِ
صاح أحمد الشامي

المكتب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

المكتب الإسلامي

بِـيروت : ص.ب. : ١١/٣٧٧١ - هاتف: ٤٥٦٢٨٠ (٠٥)

عَمَّان : ص.ب. : ١٨٢٠٦٥ - هاتف: ٤٦٥٦٦٠٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً فيه، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وَبَعْدُ:

جيل الصحابة رضي الله عنهم هم القوم الذين اختارهم الله تعالى، ليكونوا أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم في مهمة حمل رسالة الهداية، التي انطلق بها من أم القرى لتحمل الخير والهدى إلى الناس، كل الناس . .

هذا الجيل جيل فريد . .

لأنه عايش نزول آيات القرآن الكريم من السماء، آية آية، فعاش الكلمات، وعاش الأحرف، وعاش النبضات . .

ورأى تَصَبَّبَ العرق عن وجه النبي الكريم وهو يتلقى
الوحي .

عاش التكذيب والاضطهاد، وعاش التعذيب والحصار،
وهاجر من أجل المعتقد، فترك الأهل والوطن والمال .

كانوا على الأثر خلف الرسول الكريم، خطوة خطوة،
يسمعون أوامره وتوجيهاته، وينتهون عما نهى، ويلبُّون
نداءه، ويفرحون لفرحه، ويحزنون لحزنه . . يقدونه بأنفسهم
وأهلهم وأموالهم .

هذا الجيل، أتيح له ما لم يتح لغيره، ولهذا كانت
خبراتهم وتجاربهم وفهمهم للأمور يُعدّ مرجعاً في فهم
كتاب الله تعالى وستة رسوله ﷺ .

وقد جمعت في هذه الرسالة طائفة من المواقف التي
تضع بين أيدينا نماذج كريمة من هذه الفهوم التي أضحت
معالم للخير والتقوى .

وقد صدرت الطبعة الأولى لهذه الرسالة تحت عنوان
«هكذا فهم السلف» ولما كان أكثر أصحاب تلك المواقف
من الصحابة، رأيت أن يكون العنوان الجديد:

«هكذا فهم الصحابة»

فذلك أقرب للصواب .

وقد أضفت إلى ما سبق ذكره في الطبعة الأولى ما
يعدل نصف الرسالة، أو قريباً من ذلك .

واللّٰه المرجو، أن ينفع بها، وأن يجعلها خالصة له إنه
نعم المسؤل.

وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

٢٣ رمضان ١٤٢٧هـ

كتبه
صالح أحمد الشامي



مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم
على سيدنا محمد، النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

في سيرة السلف - والصحابة منهم خاصة - مواقف
عظيمة، قد تمر بالقارئ لتاريخهم دون أن تسترعي انتباهه،
لانشغاله بما بين يديه من ازدحام الفضائل والمكارم.

وأثناء دراستي للسيرة الشريفة، استوقفتني بعض تلك
الكلمات أو المفاهيم.. التي تبين أسلوب تفكير السلف،
ودقة فهمهم، ووجهة اهتماماتهم. فجمعت منها ما تيسر
لي.. وقد أردتها نماذج تلقي الضوء على هذا الجانب من
حياتهم.

وقد ضمنت بعضها إلى بعض فيما يلتقي بالموضوع
ووضعتها تحت عنوان مناسب.

وقد دفعني إلى هذا العمل قناعتي بالضرورة الماسة

في العودة إلى مفاهيم السلف والتعرف على اهتماماتهم ..
ففي ذلك الخير الكبير، الذي لخصه أبو بكر الصديق في
آخر خطبة خطبها عندما قال:

«وإن هذا الأمر - الذي هو أملك بنا - لا يصلح آخره
إلا بما صلح به أوله».

واللّهُ أسأل، أن يجعل هذا العمل خالصاً له، إنه نعم
المجيب، والحمد لله رب العالمين.

غرة رجب سنة ١٤١١هـ

كانون ثاني سنة ١٩٩١م

صلاح أحمد الشامي



لیتینی مکانہ

درج الناس على أن تكون قضايا الحياة الدنيا شغلهم الشاغل، الذي يستأثر باهتمامهم من مال وجاه وزينة.. . وتلك هي بواعث الحسد بين الناس، وبواعث الإعجاب بمن له نصيب وافر منها.. .

وقد قصَّ علينا القرآن الكريم قصة قارون، نموذجاً لسلوك هذا الفريق من الناس، الذي يؤثر الحياة الدنيا، فقال تعالى:

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (٧٩) [القصور].

وجاء الإسلام.. .

فأوجد مفاهيم جديدة، وأوجد جيلاً تمثل هذه المفاهيم.

وأوضحت الحياة الآخرة في خلد هذا الجيل وذاكرته واقعاً مرتقباً، له من التأكيد في قرارة النفوس ما للواقع القائم، وهو الحياة الدنيا، واتجهت الهمم متطلعة إلى الباقي متجاوزة الفاني.. . وهكذا بدأ الناس يغبط بعضهم بعضاً على العمل الصالح، والعمل الخير.

وإذا كان المسلم يتمنى مثل ما لأخيه من أعمال الخير، فإنما هو - في الحقيقة - يعترف لأصحاب الفضل بفضلهم، ويحث النفس على السير في طريق البر والتقوى.

صاحب الحفرة

وحطّ القوم رحالهم، وقد أخذ التعب منهم مأخذه،
فما أن تناولوا تلك اللقيمات، أو تلك التمرات التي تقيم
أودهم، بعد أن صلّوا المغرب والعشاء جمعاً وقصراً، حتى
استسلموا للنوم.

وما لهم لا ينامون، وقد قطعوا مسافة غير قصيرة من
الطريق، فيهم الماشي وفيهم الراكب، فهم يتعاقبون في
ذلك، والقليل القليل منهم الذي يجد المركب الذي لا
يشاركه فيه غيره..

كانت تلك محطة من محطات طريق العودة إلى المدينة
من تبوك، وما يزال من الطريق نصفه أو أكثر.

وخيم الظلام وسكنت الأصوات، فالكل حريص على
أخذ قسط من الراحة ليستعيد نشاطه لمتابعة السير في اليوم
التالي.

وفي جانب من جوانب المعسكر، الذي ملأ الرحب،
كانت بعض الحركة وكانت هناك شعلة نار يستضيء بها
أولئك النفر..

وقام عبدالله بن مسعود من جوف الليل لحاجته . . فرأى تلك الشعلة فدفعه حب الاستطلاع إلى معرفة الخبر . . قال عبدالله بن مسعود: «قمت من جوف الليل، وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر، فاتبعتها أنظر إليها، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وإذا عبدالله ذو الجادين المزني قد مات . وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله ﷺ في حفرتة، وأبو بكر وعمر يدلّيانه إليه، وهو يقول: (أدنيا إليّ أخاكما)، فدلياه إليه، فلما هياه لشقه قال: (اللهم إني أمسيت راضياً عنه فارضَ عنه . .)» .

يقول عبدالله بن مسعود: «يا ليتني كنت صاحب الحفرة»^(١) .

أن يخرج الإنسان المسلم من هذه الدنيا، ورسول الله عنه راضٍ، ويطلب له رضی الله تعالى . . فتلك أمنية يتطلع إليها كل مسلم . . فلم يسع ابن مسعود أن يكتمها، فصرح بها أمنية رفيعة تتطلع إليها النفوس المؤمنة .



(١) «سيرة ابن هشام» ٥٢٧/١ .

معكما

خرج المسلمون مسرعين يريدون عير قريش، وهي في طريقها من بلاد الشام إلى مكة، هذه العير التي كانت على ظهورها أموالهم المسلوقة التي تركوها في مكة.. فأخذتها قريش..

كان عددهم كبيراً، أكثر من ثلاثمائة، وليس مع العير إلا أربعين رجلاً يقودهم أبو سفيان.

كانت الأمنيات كبيرة في عودة سريعة إلى المدينة، وهم يسوقون تلك العير، وقد أسروا أبا سفيان ومن معه، كان البشر يملأ نفوسهم، وخاصة أنه ﷺ قال لهم: (لعل الله أن ينفلكموها).

وفجأة تغير الموقف.. فلم تفلت العير وحسب.. وإنما وجدوا أنفسهم أمام ألف مقاتل خرجوا مستعدين للقتال، معهم كل عتادهم وسلاحهم.

ووقف ﷺ يستشير أصحابه.. وكان من بين المتكلمين المقداد بن الأسود فقال:

«يا رسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: أَذْهَبَ ﴿أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه، حتى تبلغه...»^(١).

فأشرق وجه رسول الله ﷺ وسره ذلك^(٢).

وإذا كان من شيء يغبط عليه إنسان، فهو الكلمة البليغة في معناها، البليغة في صدقها، وخاصة إذا كانت مصدر سرور لرسول الله ﷺ في ذلك الموطن الحرج.

ولقد غبط ابن مسعود المقدادَ على هذا الموقف وتمنى لو كان صاحبه.

قال: «شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به. أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال قوم موسى...»^(٣).

وغبطه الأنصار عليها وتمنوا لو قالوا ذلك^(٤).

(١) «سيرة ابن هشام» ٦١٥/١.

(٢) رواه البخاري برقم (٣٩٥٢).

(٣) رواه البخاري برقم (٣٩٥٢).

(٤) رواه ابن أبي حاتم من حديث أبي أيوب، كما ذكره في

«فتح الباري» ٢٨٨/٧ في شرح الحديث رقم (٣٩٥٢).

كان التسابق في كل ما يرضي الله تعالى وما يرضي
رسوله ﷺ ويُدخل السرور على قلبه .

كانت الكلمة للمقداد . . ولكنها كانت بصيغة الجمع ،
وبلسان الجميع ، فهو يعلم ما في نفوس القوم من حب
رسول الله وحب كل ما يرضيه . ولئن وفقه الله لحسن
التعبير في الموقف الصعب ، فقد وفقه الله ووفق جميع
الصحابة لتصديق القول بالعمل . . ولقد كانت أعمالهم دائماً
هي التي تتكلم . . .

حق لابن مسعود أن يغبط المقداد على ما أكرمه الله
به .

وحق لكل مسلم أن يغبط كل صحابي أكرمه الله بذلك
الموقف . . .



بمثل عمله

تربى في حجر رسول الله ﷺ . فنشأ على الإسلام من نعومة أظفاره .. رأى الأصنام وخالطها ولكن الله كرم وجهه فلم تحط منه باحترام أو تقدير...

وظلت ملازمته للنبي الكريم طيلة حياته، في حربه وسلمه ..

واختاره ﷺ ليكون زوجاً لابنته فاطمة فكان منهما أسباط النبي ﷺ وعقبه من بعده.

كان الفارس المعلم في الميدان، وكان القائد المظفر الذي أجرى الله على يده الفتح في أكثر من موطن .. وكان العالم الذي يرجع إليه في معضلات الأمور، وكان العابد الذي عرفه الليل في ظلمته كما عرفه النهار ..

ومن مثله في سبقه إلى الإسلام^(١)، وقرابته من

(١) ذلك أن السابق كان لأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها ثم لأبي بكر

الصديق رضي الله عنه، ثم لعلي رضي الله عنه.

رسول الله، وعمله في سبيل الله.. وقد توفي رسول الله وهو عنه راض... .

ذلكم هو أبو تراب: علي بن أبي طالب... .

كل هذه السابقة

وكل ذلك الجهاد الطويل

وكل ذلك الفقه في دين الله تعالى

وكل تلك العبادة لله تعالى

وكل ذلك السجل الحافل بالمكارم... .

كلها تقف في شخص عليّ لـتتمنى أن تلقى الله بعمل

عمر.

روى البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال:

«وُضع عمر بن الخطاب على سريره، فتكئفه الناس^(١)

يدعون ويشنون ويصلون عليه، قبل أن يرفع، وأنا فيهم.

قال: فلم يرُغني^(٢) إلا برجل قد أخذ بمنكبي

من ورائي، فالتفت إليه فإذا هو عليّ، فترحم عليّ عمر

وقال:

(١) أي: أحاطوا به، وذلك حين توفي ﷺ، بعد أن طعنه أبو

لؤلؤة... .

(٢) معناه: لم يفجأني إلا ذلك.

ما خَلَفْتَ أحداً أَحَبَّ إِلَيَّ، أن ألقى الله بمثل عمله،
منك. وإيم الله، إن كنتُ لأظن أن يجعلك الله مع
صاحبَيْكَ، وذلك أني كنتُ أكثرُ أسمع رسول الله ﷺ يقول:
(جئتُ أنا وأبو بكر وعمر، ودخلتُ أنا وأبو بكر وعمر،
وخرجتُ أنا وأبو بكر وعمر). فإن كنت لأرجو، أو لأظن
أن يجعلك الله معهما^(١).

نعم، إنه لا يعرف الرجال إلا الرجال، ولا يعرف
الفضل إلا ذوهه.



(١) رواه البخاري برقم (٣٦٨٥)، ومسلم - واللفظ له - برقم

(٢٣٨٩).

أمين الأمة

«الأمانة» مصطلح يجمع تحته كل صفات الخير، ولهذا أُطلق على رسول الله ﷺ في شبابه، فكان من معناه: الصدق، والعفاف، والاستقامة، والمروءة... وقد أشارت السيدة خديجة إلى بعض معناه عندما وصفت الرسول الكريم فقالت: «إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق».

وإذا صدر هذا الوصف عن رسول الله ﷺ لرجل ما، وهو الصادق الصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى.. فذلك هو الشهادة الصادقة، والمنصب العالي، والشرف الرفيع الذي تتناول إليه الأعناق، وتتزاحم عليه الركب.

كان ذلك عندما قدم وفد نجران - وهم من النصاري - على رسول الله ﷺ، فعرض عليهم الإسلام، وناقشهم في قولهم في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ... ونزل في ذلك صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية، ومنها قوله تعالى:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾
 فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ
 أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ
 فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ [آل عمران].

فطلب منهم ﷺ أن يباهلهم^(١)، وفقاً لما جاء في الآية
 الكريمة فامتنعوا، ووافقوا على دفع الجزية والبقاء على
 دينهم. وسألوا رسول الله ﷺ أن يرسل معهم رجلاً أميناً من
 أصحابه يحكم بينهم في أشياء اختلفوا فيها.

فقال ﷺ: (لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حق أمين)
 فاستشرف^(٢) له أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: (قم يا
 أبا عبيدة بن الجراح)، فلما قام قال: (هذا أمين هذه
 الأمة)^(٣).

قال عمر بن الخطاب: ما أحببت الإمارة قط حبي إياها
 يومئذ رجاء أن أكون صاحبها^(٤)، فرحت إلى الظهر
 مهجراً، فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر، سلم ثم نظر عن
 يمينه وشماله، فجعلت أطاول له ليراني، فلم يزل يلتبس

(١) الابتهال: الاجتهاد في الدعاء، وتباهلوا: تلاعنوا.

(٢) أي: حرصوا أن يكونوا أصحابها.

(٣) رواه البخاري - واللفظ له - برقم (٤٣٨٠)، ومسلم برقم

(٢٤٢٠).

(٤) أي: صاحب تلك الكلمة التي قالها ﷺ.

ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح، فدعاه فقال: (اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه). قال عمر: فذهب بها أبو عبيدة رضي الله عنه ^(١).

لم يكن عمر وحده هو الذي تطاول لها، ولكن كل صحابي كان له رجاء في أن يكون صاحبها.

وإذا كان عمر واحداً ممن تمنّاها قبل أن يعرف صاحبها، فإنه هو الذي تمنى أن يكون في المسلمين من أمثال أبي عبيدة كثير.

عن أبي نجيح قال: قال عمر بن الخطاب لجلسائه: تمنوا، فتمنوا. فقال عمر: لكني أتمنى بيتاً ممتلئاً رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح، فقال له رجل: ما ألوّت الإسلام ^(٢)، فقال: ذاك الذي أردت ^(٣).

إنها الأمانى التي ترضي الله تعالى.



(١) «تفسير ابن كثير» عند تفسير الآيات ٥٩ - ٦٣ من سورة آل عمران.

(٢) أي: ما قصرت في حقه.

(٣) «طبقات ابن سعد» ٤١٣/٣.

ويحبه الله

حب الله ورسوله ركن أساسي في هذا الدين، لا يكون إسلام ولا إيمان بغيره. ولا يعرف حلاوة الإيمان إلا من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما.

والحب هنا ليس مجرد عاطفة ومشاعر وأحاسيس ولكنه - أيضاً - عمل يجسد تلك المشاعر والعواطف.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران].

وقد ضرب جيل الصحابة أروع الأمثلة في هذا الحب.

لما أحضر زيد بن الدثنة حتى تضرب عنقه، قال له أبو سفيان: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلِكَ؟ قال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي... فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً.

ولما رجع عمرو بن مسعود الثقفي في مفاوضة

الرسول ﷺ في صلح الحديبية، قال لقريش: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً.

والأمثلة كثير... .

وتحضر غزوة خيبر.

ويقول ﷺ يومها: (لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله).

قال سهل بن سعد رضي الله عنه: فبات الناس يدوكون ليلتهم^(١) أيهم يعطاها؟ فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها فقال: (أين علي بن أبي طالب؟)^(٢)... وجاء علي بن أبي طالب.

كلهم كان يعلم اليقين من نفسه أنه يحب الله ورسوله، ولذلك يرى في نفسه الأهلية لذلك... .
فتمناها عمر بن الخطاب.

(١) أي: يخوضون ويتحدثون في ذلك.

(٢) الحديث رواه البخاري برقم (٤٢١٠)، ومسلم برقم (٢٤٠٦).

وتمناها سعد بن أبي وقاص .

وتمناها بريدة بن الحصيب .

وتمناها كل صحابي . . .

يقول بريدة رضي الله عنه : فما منا رجل له منزلة عند رسول الله ﷺ إلا وهو يرجو أن يكون ذلك الرجل، حتى تناولت أنا لها^(١) .

وفاز بها ابن أبي طالب رضي الله عنه . شهادة حقة، تقرر له ما يعلم من نفسه من حب الله ورسوله، وتبشره بما لا يعلمه من حب الله له وحب رسوله ﷺ .

وأى بشارة مثلها، إنها غاية المبتغى، وأمل الحياة من كل مسلم .

ولعل هذا ما عناه ابن القيم رحمه الله عندما قال :

«ليس العجب من قوله (يحبونه) وإنما العجب من قوله (يحبهم)»^(٢) .



(١) الحديث ذكر في «فتح الباري» ٤٧٧/٧ .

(٢) «الفوائد» لابن القيم ص ٩١، طبعة دار النفائس .

واحدة من ثلاث

سعد بن أبي وقاص: أحد السابقين إلى الإسلام، سبقه ستة، وكان سابعهم.

أول من رمى بسهم في سبيل الله.

أحد العشرة المبشرين بالجنة.

فاتح العراق ومدائن كسرى...

يقول سعدٌ - وهذه مكانته - وقد ذكّر علي بن

أبي طالب:

[ثلاث]... لأن تكون لي واحدة منهن أحب إليّ من

حمر النعم:

سمعت رسول الله ﷺ يقول له، وقد خلفه في بعض

مغازيه، فقال له علي: يا رسول الله، خلفتني مع النساء

والصبيان؟ فقال له رسول الله ﷺ: (أما ترضى أن تكون

مني بمنزلة هارون من موسى؛ إلا أنه لا نبوة بعدي).

وسمعته يقول يوم خيبر: (لأعطين الراية رجلاً يحب الله

ورسوله، ويحبه الله ورسوله) قال: فتطاولنا لها فقال: (ادعو لي علياً) فأتني به أرمداً، فبصق في عينه ودفع الراية إليه، ففتح الله عليه.

ولما نزلت هذه الآية ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١] دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: (اللهم هؤلاء أهلي)^(١).

سعد - وله ما له من السابقة والفضل - يتمنى أن تكون له واحدة منهن، ويسوق هذا التمني أمام من لا يرى لعلي ذلك الفضل، فأحب أن يعرفه بعض مكانة علي عليه السلام.



(١) رواه مسلم برقم (٣٢) من كتاب فضائل الصحابة في

«صحيحه».

احترام و تقدیر

في مجتمع الإيمان لا يترفع أحد على أحد، ولا يرى
أحد لنفسه الفضل على غيره... .

عالم تربطه الأخوة، يوقر فيه الصغير الكبير، ويرحم
فيه الكبير الصغير، والقوي الضعيف، ويُعترف فيه لصاحب
الفضل بفضله.

لا حسد فيه، ولا كراهية، ولا بغض... .

إنهم يحبون الله، ويكرهون الله، عَمَرَ الإيمان قلوبهم
فتواضعوا لله، وصفتُ سرائرهم من أدران الضغينة،
يتعاملون بميزان الله... . فيرفعون من رفع ويضعون من
وضع.

﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] زادهم
التواضع رفعة، فعلوا في أعين الناس... . وهم في أعين
أنفسهم قليل.



هكذا أمرنا

عندما نذكر زيد بن ثابت . . .

نذكر شاباً من شباب الأنصار حيوية وعقلاً وفضلاً .

نذكر كاتب الوحي بين يدي رسول الله ﷺ .

نذكر واحداً من أربعة من الأنصار حفظوا القرآن
واستظفروه على عهد ﷺ .

نذكر صاحب اليد الطولى في جمع القرآن الكريم
وتدوينه . . . نذكر الجهد المبذول في ذلك . نذكر قوله يوم
كلف بذلك: «والله لو كلفاني - أبو بكر وعمر - نقل جبل
من مكانه لكان أهون علي مما كلفاني به . . .» .

نذكر المشرف على نسخ وكتابة القرآن الكريم في عهد
عثمان . . .

ونذكر واحداً من علماء الصحابة وفقهائهم وأهل الفتوى
فيهم . . .



وعندما نذكر عبدالله بن عباس . . .

نذكر ابن عم رسول الله ﷺ .

نذكر من ضمه الرسول ﷺ إلى صدره وقال: (اللهم علمه الكتاب).

نذكر واحداً من أعلم الصحابة بتفسير كتاب الله تعالى .

نذكر ترجمان القرآن .

نذكر فتى كان يدخل مجلس عمر مع الكبار .



وعندما نذكرهما معاً . . . نذكر قول أبي هريرة يوم مات

زيد:

«مات حبر هذه الأمة، وعسى الله أن يجعل في ابن عباس منه خلفاً» .



وعندما نذكرهما معاً . . . نتعلم كيف يقدر أهل الفضل

الفضل .

عن عمار بن أبي عمار: أن زيد بن ثابت ركب يوماً،

فأخذ ابن عباس بركابه، فقال له: تنح يا ابن عم رسول الله ﷺ.

فقال له: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا.

فقال زيد: أرني يدك، فأخرج يده، فقبلها زيد وقال:
هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا^(١).



(١) «كنز العمال» ٣٩٦/١٣ حديث (٣٧٠٦١)، والقسم الأول منه في «الإصابة» في ترجمة زيد، وقال: سنده صحيح.

وأعتق سيدنا

كنت أقرأ في «صحيح الإمام البخاري» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فاستوقفني ما رواه من قول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا، يعني: بلالاً»^(١).

وعادت بي الذاكرة بعيداً بعيداً، قبل أن يسلم عمر، إذ السيادة يومئذ نسب وقبيلة، مال وثراء، أثاث ورياش. وعمر واحد من سادة قريش في الجاهلية، وكان هو وأبو جهل كفرسي رهان...

وأسلم عمر... وتغيّرت لديه المفاهيم، وتغيّرت الموازين...

وتعلّم أن الناس كلهم لآدم وآدم من تراب، وأنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وأن أكرم الناس عند الله أتقاهم...

وعرف أن العمل يقاس بدافعه، فالأعمال بالنيات. وتبيّن له أن السابقة، إنما هي سابقة الإيمان...

(١) رواه البخاري برقم (٣٧٥٤).

ونظر، فإذا خمس سنوات بأيامها الطويلة تفصله عن هذه السابقة التي سارع إليها أبو بكر وبلال. خمس سنوات قضاهما في الجاهلية، وأبو بكر وبلال في ظلال الدعوة يكافحان - مع من أسلم - الباطل، ويعانيان في سبيل ذلك ظلم الظالمين وبطش الطغاة... .
زمن طويل.. فاته فيه خير كثير... .

ونظر عمر بمقياس الإيمان.. فإذا السيادة - كما رآها - قَدَم في الدعوة، وسابقة في الإسلام، وعناء يعانئ في سبيل الله.. وكان السابق إلى ذلك حر وعبد، أما الحر فهو: أبو بكر، وأما العبد فهو: بلال، وذهبت فواصل اللون والشكل، والحرية والرق.. فالكل عبيد الله، وإذا أبو بكر وبلال أخوان في الله.

ورأى عمر أنهما سيدان في ميزان الإسلام فقال:
أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا.
إنه يقرر هذا اعترافاً منه بالفضل لأصحابه، وإن كان أبو بكر لا يرى لنفسه هذا، وكذلك بلال لا يرى لنفسه هذا.

وأن يعترف عمر لأبي بكر بالسيادة، فذلك أمر لا غرابة فيه، وأما أن يعترف لبلال - العبد الحبشي - بالسيادة، فتلك هي النقطة التي صنعها الإسلام، وبغير الإيمان لا يمكن تحقيق ذلك.

إنها نقلة بعيدة بعيدة، لا تقاس بمقاييس المادة، ولكنها تقاس بالمقياس الحضاري الذي أوجده الإسلام.

أيها الأمير

أسامة بن زيد، الحَبُّ ابن الحَبِّ، صاحب آخر لواء
عقده ﷺ بيده، وقائد آخر بعث شكله الرسول الكريم.

وانتدب مع أسامة في هذا البعث كبار المهاجرين
والأنصار، منهم: أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، وسعد وسعيد
وقتادة. . .

وتوقف الجيش بسبب مرضه ﷺ ووفاته. . ثم أنفذ في
خلافة أبي بكر رضي الله عنه، الذي خرج يودع أسامة، ويستأذن
لعمل بالإقامة. . فأذن له.

وانطلق الجيش، وقام بالمهمة الموكلة إليه خير قيام،
ثم عاد إلى المدينة.

وبانتهاء المهمة تنتهي إمارة أسامة. ولكن عمر وهو
ال خليفة الثاني ظل يناديه بالأمير، وهو يومئذ أمير المؤمنين.

عن عبدالله بن دينار قال: كان عمر بن الخطاب إذا
رأى أسامة بن زيد قال: السلام عليك أيها الأمير، فيقول
أسامة: غفر الله لك يا أمير المؤمنين، تقول لي هذا؟ قال:

فكان يقول له: لا أزال أدعوك ما عشتُ أيها الأمير. مات رسول الله ﷺ وأنت عليّ أمير^(١).

أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، لم ينس أن رسول الله ﷺ توفي. وأسامة أمير عليه، ولم تلغ هذه الإمارة وإنما انتهت مهمتها. . ولذا كان من الوفاء والتقدير أن يناديه بذلك. وهذا من فقه عمر رضي الله عنه وعن أسامة. .



(١) كنز العمال ٢٧١/١٣ ح (٣٦٧٩٥).

بنت الحَبِّ

إنما يكرم الكرامَ الكرام، وإنما يعرف الفضل ذووه.

جيل الصحابة كله مكرم بتكريم رسول الله ﷺ في قوله: (خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم...).

والصحابة إن كانوا يشتركون في الصحبة، فإنهم في الفضل متفاوتون. وقد خصَّ بعضهم بمزايا لم يشاركه فيها غيره. وقد كان زيد بن حارثة حَبَّ رسول الله ﷺ.

وكان ابنه أسامة الحب بعده، فكان يطلق عليه: الحب ابن الحب.

وتمر الأيام...

وتؤول الخلافة إلى عمر بن عبدالعزيز.

وتدخل عليه امرأة طاعنة في السن، ومعها مولاة لها تمسك بيدها. وما إن رأى ذلك عمر حتى قام من مجلسه.. فاستقبلها.. ومشى إليها، حتى جعل يدها في

يده - ويده في ثيابه - ومشى بها حتى أجلسها في مجلسه،
وجلس بين يديها... .

جلس بين يديها كما يجلس التلميذ بين يدي أستاذه،
وكما يجلس الطفل بين يدي مربيه... .
ولم يترك لها حاجة إلا قضاها^(١).

كانت تلك المرأة، ابنة أسامة بن زيد... .
وكيف لا يكرمها... . وإنما يكرم فيها مكانة والدها
وجدها عند رسول الله ﷺ.
تلك هي المفاهيم الحقّة... .



(١) أصل الخبر في «حلية الأولياء» ٢٧١/٥.

مُشَارَكَةُ أَكْثَرِ مِمَّنْ وَجَدَانِيَّةٌ

في الحديث المتفق عليه قوله ﷺ:

(مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى).

إنه واقع ربي عليه المؤمنون الأوائل، قبل أن يرسم ﷺ معالمه بالبلاغة النبوية، فكان الواقع سابقاً على الوصف. وحيث وُجد المؤمنون، فثمة هذه الصورة، لأنها نتاج حتمي عن طبيعة الإيمان.

وحين لا يحس المسلم بآلام المسلمين.. ولا تُفرحه سعادتهم، فليراجع حساب إيمانه، فإن للإيمان خصائص.. وهذه واحدة منها.

قد تنأى الديار، وقد تختلف اللغات والأوطان، وقد تفصل الحدود والحواجز.. ولكن رباط الإيمان قادر على اختراق كل تلك العوائق.. فيشاطر المسلم المسلم أفراحه وأتراحه.. وهذه المشاركة هي الحد الأدنى الذي يقبل به الإسلام.. في الظروف العصيبة.



حبسهم العذر

وعاد المسلمون إلى المدينة. وحين دنوا منها، قال لهم رسول الله ﷺ: (إن بالمدينة أقواماً، ما سرتهم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم) قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال: (وهم بالمدينة، حبسهم العذر)^(١).

لقد مضى على مغادرتهم المدينة شهر أو أكثر، كانوا فيه في تعب ونصب، في جوع وعطش، حرارة الشمس الملتهبة تلفح وجوههم وأجسامهم، والغبار المتصاعد يغشى وجوههم ويزكم أنوفهم.. قطعوا نصف الطريق أو أكثره مشياً، فلم يكن الظهر متوفراً، فكانوا يتعاقبون الركوب... والطريق طويلة...

ومع ذلك، فهناك قوم بالمدينة كانوا معهم...؟! كانت الدعوة إلى التجهز لغزوة تبوك في وقت الحر، وكانت في وقت عسر وضيق في النفقة والظهر... ولذا سمي جيشها جيش العسرة.

(١) رواه البخاري برقم (٤٤٢٣).

وتجهز الناس... ولكن فريقاً منهم لم يكن قادراً على النفقة والظَّهر، فماذا يفعل؟ وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ يشكون حالهم، فجهز من استطاع تجهيزه منهم، واعتذر إلى من لم يستطع مساعدتهم... فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع، ألماً وحسرة أن حرموا أداء الواجب والمشاركة في الأجر...

وعَدَّهم الله تعالى كما عذر المرضى والضعفاء فقال:

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّأَتْحَمَلَهُمْ قُلُوبُهُمْ لَا أَحَدٌ مَّا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (٩٢) [التوبة].

قوم أحزنهم عدم قدرتهم على الخروج إلى المعركة فبكوا.. كيف تكون مشاعرهم وهم يودعون إخوانهم وهم غير قادرين على مشاركتهم؟ لا شك أن عواطفهم وأفتدنتهم ومشاعرهم عاشت جو المعركة المرتقبة، فهم يحسون آلام إخوانهم ويتخيلونهم في صعودهم وهبوطهم، في حطهم وترحالهم، في جوعهم وعطشهم.. فلقد كانوا معهم كما قال الرسول الكريم.

ولكأنني بهم يقطعون طرقات المدينة جيئة وذهاباً، فما

يكادون يستطيعون القعود، ولتترك الحديث لأخ لهم يصف لنا حاله بعد مغادرة رسول الله ﷺ المدينة.

رجع أبو خيثمة إلى بيته - بعد مغادرة الجيش المدينة - فنظر إلى امرأته وقد هيأتا له الطعام والماء البارد. فقال: رسول الله في الضح^(١) والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، طعام مهياً. في ماله مقيم؟! ما هذا بالنصف. ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ.. فارتحل ناضحه...

إن حرارة الإيمان منعه من المكوث، ولو إلى تناول طعامه، فارتحل، ولكن هؤلاء لا يجدون ما يرتحلون عليه، إن ظروفهم قصرت بهم عن المشاركة، ولكنها لا تستطيع أن تسيطر على عواطفهم فتمنعها من المشاركة.

«إن هذه المشاركة الوجدانية هي مصدر الفاعلية في الإنسان، فهي الباعث للمشاركة الحركية.. إن الحركة الوجدانية في نفس أبي خيثمة هي التي دفعته أن ينطلق ليقطع الطريق إلى تبوك منفرداً..».

«تلك طبيعة الإيمان، تجعل المؤمن جزءاً من مجتمع، فلا بد أن يحس كل منهما إحساس الآخر، وحينما ينقطع هذا الإحساس من الجزء فهو عضو أشل لا فائدة فيه،

(١) أي: الشمس.

وحين يخلو المجتمع من هذا الإحساس فهو مجتمع لم يتسم بسمة الإيمان^(١).

وإذا كانت تلك الحركة الوجدانية عملاً باعثاً، فإنها قد جعلت منهم في نظام الإسلام مشاركين حقيقيين، لهم نصيبهم من الأجر. كما جاء في رواية أحمد ومسلم: (لقد خلفتم بالمدينة رجالاً، ما قطعتم وادياً، ولا سلكتم طريقاً إلا شركوكم في الأجر...)^(٢).

ذلك نظام الإسلام.. وذلك فضل الله.



(١) عن كتاب «من معين السيرة» للمؤلف ص ٤٨٥.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسير» الآية ٩١ من سورة التوبة.

إنها... لفقيرة

قد يجد الإنسان ما يساعده على تصديق الكذب إذا كان ذلك يصادف هوىً في نفسه، أو يساعد على تحقيق رغبة من رغباتها. وهذا ما حدث لهم، فقد غادروا بلدهم وأهلهم في سبيل عقيدتهم، طلباً لجو من الحرية يؤدون فيه شعائر عباداتهم بعيداً عن القهر والإرهاب.. وها هم يقيمون في الحبشة، بلد غريب عليهم في عاداته وتقاليده ولغته.. إنهم غرباء.. وقد يخفف من آلام غربتهم تلك ما وجدوه من ترحيب النجاشي بهم.

وبلغهم خبر قيام هدنة بين الرسول ﷺ وبين قريش، فسارعوا إلى العودة.. وقريباً من مكة تبين لهم حقيقة الأمر، وكذب الخبر، ولم يكن الرجوع أمراً سهلاً، فدخلوا مكة.. ولم يدخل أحد منهم إلا بجوار.

وقلما استطاع مسلم أن يستمر طويلاً في جوار كافر، فالجوار التزام، وقد يكون في هذا الالتزام ما يحجز

الحرية، ويضبط السلوك، بل ربما كان يتعارض مع حسّ نفسيّ ومشاعر إيمانية.. وما هي إلا أيام قلائل حتى ردّ كل منهم جوار من أجاره.

كان عثمان بن مظعون واحداً من هؤلاء، وقد دخل في جوار الوليد بن المغيرة، فلما رأى ما يعانیه إخوانه من إيذاء المشركين، وهو آمن، لم يستطع الصبر على ذلك، فما من ضرب يراه يقع على جسد واحد من المسلمين، إلا وجد مسّه في نفسه ألماً أكبر من الألم الذي مزق جسد أخيه.. هنا يتمزق الجسد.. وهنا تتمزق النفس.. فكان لا بد من ردّ الجوار، ليعيش كما يعيش إخوانه، يقاسمهم الضراء.. وهذا ما حدث..

ولم يكن المسلمون منكمشين على أنفسهم، على الرغم من العداء القائم بينهم وبين قريش، بل كانوا يحضرون مجالسهم وأنديتهم، ويدلون بأرائهم حاملة معهم الفكر الجديد والمفاهيم الإيمانية.

وكان عثمان في واحد من هذه المجالس، عندما أقبل عليهم لبيد بن ربيعة، الشاعر - وكان قد وصل إلى مكة - فجلس إليهم ينشدهم الشعر.. وكان مما أنشد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فقال عثمان: صدقت.

فقال لبيد:

وكل نعيم لا محالة زائل

فقال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول.

فقال لبيد: متى كان يؤذني جليسيكم يا معشر قريش؟!!

فقام رجل منهم فلطم عثمان، فاخضرت عينه. فلامه الوليد على ردّ جواره وقال: قد كنت في ذمة منيعة!!

فقال عثمان: إن عيني الأخرى إلى ما أصاب أختها - في الله - لفقيرة.

فقال الوليد: فعد إلى جوارك.

فقال: بل أرضى بجوار الله تعالى.

«إن عيني الأخرى إلى ما أصاب أختها - في الله - لفقيرة» تلك مفاهيم جديدة لم تسمع بها قريش قبل الآن، وقد لا تفهم معناها، إنها مقاييس جديدة في الفقر والغنى.. في الراحة والتعب.. إن الغنى رصيد من الثواب يدخر عند الله تعالى.. ولهذا ردّ عثمان جواره وآثر أن يعيش فيما يعيش فيه المسلمون.. إنها المشاركة التي لا بد منها في قاموس الإيمان.



أيهما الخليفة؟!

حرتُ في أمري كيف أقدم لهذا الخبر، فالمواقف الكبيرة تحار الكلمات أمامها فتقف عاجزة، ولذا آثرت أن أضع القارئ أمامه مباشرة فذلك أبلغ تقديم.

عن عبيدة قال: جاء عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس إلى أبي بكر، فقالا: يا خليفة رسول الله ﷺ، إن عندنا أرضاً ليس فيها كلاً ولا منفعة، فإذا رأيت أن تقطعناها لعلنا نحرثها ونزرعها.

فأقطعها إياهما، وكتب لهما عليه كتاباً، وأشهد فيه عمر، وعمر إذ ذاك لم يكن حاضراً في المجلس.

فانطلقا إلى عمر ليشهداه، فلما سمع عمر ما في الكتاب، تناوله من أيديهما، ثم تفل فيه ومحاه، فتذمرا، وقالوا مقالة سيئة.

قال عمر: إن رسول الله ﷺ كان يتألفكما والإسلام يومئذ ذليل، وإن الله قد أعز الإسلام، فاذهبا فاجهدا جهدكما، لا أرعى الله عليكما إن رعيتما.

فأقبلا إلى أبي بكر، وهما يتذمران، فقالا: والله ما ندري، أنت الخليفة، أم عمر؟

فقال: بل هو، ولو شاء كان.

فجاء عمر مغضباً، حتى وقف على أبي بكر، فقال: أخبرني عن هذه الأرض التي أقطعها هذين الرجلين، أرض هي لك خاصة، أم هي بين المسلمين عامة؟

قال: بل هي بين المسلمين عامة.

قال: فما حملك أن تخصص هذين بها دون جماعة المسلمين؟

قال: استشرت هؤلاء الذين حولي، فأشاروا علي بذلك.

قال: فإذا استشرت هؤلاء الذين حولك، أوكلت المسلمين أوسع مشورة ورضى؟

فقال أبو بكر: قد كنت قلت لك إنك أقوى على هذا مني ولكنك غلبتني^(١).

والخبر مليء بالدروس والعبر.

لماذا يُشهد أبو بكر عمر على الكتاب، وهو غير

(١) «كنز العمال» ٩١٤/٣ رقم (١٩٥١) عن البخاري في

«تاريخه» وابن عساکر.

موجود، وهناك في المجلس من يمكنه أن يشهد على الكتاب. إن أبا بكر - ولا شك - كان يريد استشارة عمر وإطلاعه على الأمر، ولذا سجل شهادته وهو غير موجود.

وتساءل الرجلان مخاطبين أبا بكر: مَنْ الخليفة؟

والجواب هنا سهل عليه فقال: بل هو.. وقطع عليهما الطريق، فما كان مثل أبي بكر لتثيره هذه القضية، فهو كما قال: هو لو أراد.

وأما غضب عمر، وهو غضب لله.. فإن أبا بكر ينهيه بكلمات يسيرة: قد كنت لك إنك أقوى..

في ظل الإسلام وحده يمكن أن يحدث هذا.

وعندما تُتناسى النفوس ويُخلص العمل لله يمكن أن يحدث هذا.

إنه موقف المشاركة من عمر في أداء الواجب وتحمل المسؤولية. إنها المشاركة الفاعلة التي يملئها الإيمان.



يا لبيك.. ثم يا لبيك

في أيام الشتاء، حيث يشتد البرد، يتخذ الناس عادة من اللباس ما يقيهم ويدفع عن أجسامهم آلامه. ولكن بشر بن الحارث - المعروف بـ«الحافي» - كان له أسلوب آخر في التعامل مع البرد، فهو يخلع ما عليه من ثياب ويتعزى؟!!

وللوهلة الأولى، والنظرة القريبة، يذهب الإنسان في تفسير ذلك إلى نقص ما في العقل، أو ما يقارب ذلك.

ولنستمع إلى الخبر كما ينقله راويه، فربما نجد تفسيراً آخر.

قال: دخلت على بشر في يوم شديد البرد، وقد تعزى من الثياب، وهو ينتفض، فقلت: يا أبا نصر، الناس يزدون في الثياب في مثل هذا اليوم، وأنت قد نقصت؟!!

فقال: ذكرت الفقراء، وما هم فيه، ولم يكن لي ما أواسيهم به، فأردت أن أرافقهم بنفسي في مقاساة البرد^(١).

(١) «الرسالة القشيرية» باب الجود والسخاء.

ويتغير حكمنا على الرجل بعد سماع وجهة نظره، وفي كثير من الأحيان قد يكون من الخطأ أن نحكم على الأمور بالنظر إلى ظواهرها فقط.

إن البرد الذي أصابه لم يكن ليخفف من برد الآخرين، ولكنه إعلان عن مشاركة تجاوزت العواطف إلى المشاركة الحسية، فإذا المسلم عضو من الجسد حقاً.

لم يكن بشر أول من سلك هذا الطريق في التعبير عن مشاركته لإخوانه من المؤمنين والمسلمين.. فقد سبقه إلى ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ففي عام الرمادة أصاب المسلمين في الحجاز وما جاورها مجاعة شديدة، وكان عمر غير قادر على إسعاد الناس، فالبلاء عام، فما كان منه إلا أن واساهم بنفسه أولاً.. واتخذ من الإجراءات ما يسهم في تخفيف ما حلّ بهم.

وحرّم عمر على نفسه أكل اللحم حتى يأكله الناس^(١)، كما حرم السمن أيضاً، واقتصر على أكل الزيت.. حتى تغير لونه.. وتقرقر بطنه يوماً، فنقره بإصبعه وقال: تقرقر تقرقر، إنه ليس لك عندنا غيره حتى يحيى الناس^(٢).

إن عمر لم يكن قادراً على أن يرتقي بحال الناس، ولكنه وجد من نفسه القدرة على مشاركتهم ما هم فيه، وتلك نتيجة ضرورية، يُعلم من خلالها ارتباط الفرد

(١) «طبقات ابن سعد» ٣/٣١٣.

(٢) «كنز العمال» ٢/٦١١، أخرجه ابن سعد وابن عساکر.

بمجتمعه لتشكيل الجسم الذي أشار إليه ﷺ.

على أن هذه المشاركة السلبية - إن صحَّ التعبير - لا تقبل ممن كان قادراً على مشاركة إيجابية، الأمر الذي تبينه لنا رسالة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه.

وجاء في الرسالة: من عبدالله عمر، أمير المؤمنين، إلى العاص بن العاص، سلام عليك، أما بعد: فلعمري يا عمرو، ما تبالي إذا شبعت أنت ومن معك، أن أهلك أنا ومن معي، فيا غوثاه، ثم يا غوثاه...

فكتب إليه عمرو بن العاص: أما بعد، فيا لبيك ثم يا لبيك، وقد بعثت إليك بعيرٍ أولها عندك، وآخرها عندي، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته^(١).

وقد قدمت العير ووسع بها عمر على الناس...

ونلاحظ في مطلع رسالة عمر قوله: «إلى العاص بن العاص...»^(٢) وهو إنما اسمه عمرو، وفي ذلك ما فيه من الزجر والحث...

(١) «كنز العمال» ٦١٤/١٢ من رواية الليث بن سعد عند ابن عبدالحكم. وفي «طبقات ابن سعد» ٣/٣١٠.

(٢) قد تبادر إلى ذهني أن هناك خطأ مطبعياً في كتابة الاسم في قوله: إلى العاص، ولكن الرواية الثانية عن أسلم والتي فيها «إلى العاصي بن العاصي» تؤكد عدم الخطأ، وهي في «كنز العمال» ٦٠٩/١٢. وكذا نص «طبقات ابن سعد» وهذا يدل على أن ذلك كان مقصوداً.

ذلك أنه ما كان لعمرو أن ينتظر حتى تأتية الاستغاثة، بل عليه أن يبادر من تلقاء نفسه فيقوم بما طلب منه، فانتظار الطلب يعني عدم الارتقاء إلى المشاركة التي يريدها الإسلام من أبنائه.

والأقطار كالأفراد، ينبغي أن ينمو فيها حس المشاركة، وإذا كان الأفراد يمثلون الخلايا في هذا الجسم؛ فإن الأقطار تمثل الأعضاء...

ولهذا كانت رسالة عمر الغاضبة...

هذا هو الإسلام.. وهكذا فهم السلف...



بعضهم لبعض نصحة

كان ذلك سنة ثلاث وعشرين من الهجرة، عندما حج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حجته الأخيرة.

كان القوم يجلسون بمنى مع عمر. . عندما جاءه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، هل لك في فلان يقول: لو قد مات عمر، لقد بايعت فلاناً. .

وغضب عمر لهذا القول غضباً شديداً. . ثم قال: «إني إن شاء الله لقائم العشية في الناس فمحذرهم هؤلاء الذين يريدون أن يغضبوهم أمورهم».

كان غضبه شديداً لما تؤدي إليه هذه المقالة من تفريق الصف وانقسام المسلمين إلى فرقٍ وشيع، حيث يبايع كل فريق من يرون. .

غضب لأن هذه المقالة تسلب الأمة أعظم مقومات نظامها، ألا إنه الشورى، التي وصف الله بها المسلمين

حين قال: ﴿وَأْمُرُهُمْ سُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ كما أمر بها نبيه ﷺ فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.

وكان في المجلس عبدالرحمن بن عوف فقال: يا أمير المؤمنين لا تفعل، فإن الموسم يجمع رعاك الناس وغوغاءهم، فإنهم هم الذين يغلبون على قربك حين تقوم في الناس، وإنني أخشى أن تقوم فتقول مقالة يطيرها عنك كل مطير، وأن لا يعوها، وأن لا يضعوها على مواضعها، وأمهل حتى تقدم المدينة، فإنها دار الهجرة والسنة، فتخلص بأهل الفقه، وأشرف الناس وذوي رأيهم، فتقول ما قلت متمكناً، فيعي أهل العلم مقالتك؛ ويضعونها على مواضعها.

وقبل عمر مشورة عبدالرحمن وقال: والله - إن شاء الله - لأقومن بذلك في أول مقام أقومه بالمدينة^(١).

رضي الله عنك يا ابن عوف، لقد أشرت بالرأي، وصورت الواقع الذي يحدث عادة أدق تصوير.. فالرعاك والغوغاء هم الذين يغلبون في الاجتماعات العامة.. إنها النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.



(١) جاءت القصة بطولها عند البخاري برقم (٦٨٣٠).

مَن لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟

قال رسول الله ﷺ:

(إنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن^(١) بحجته من بعض. فأقضي له على نحو مما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً، فلا يأخذه، فإنما أقطع له به قطعة من النار)^(٢).



يرتقي الإسلام بوسائل إحقاق الحق إلى مستوى رفيع، فهو يقيم في كل نفس محاسباً لها، فلا ينتظر الذي عليه الحق حتى يُطالب به، بل يطالب المرء نفسه قبل أن يطالبه غيره. وتلك بعض خصائص الأمانة التي هي صفة لازمة لكل مسلم. وما زالت تربية الإسلام تؤتي ثمارها في هذا الميدان، وفي كل ميدان. على الرغم من غياب السلطة في كثير من بلدان المسلمين، ذلك أنه لا يلجأ إليها إلا عندما تخف مراقبة الله تعالى في قلوب العباد.

ونكتفي بنماذج قليلة من سلوكيات السلف في هذا الباب، هي من الكثرة بحيث لا يمكن إحصاؤها.

(١) معناه: أبلغ وأعلم بالحجة.

(٢) متفق عليه، وهو عند البخاري برقم (٢٦٨٠)، ومسلم برقم

(١٧١٣).

لعل الله يرزقنا جملاً

في ظل الإسلام يعيش الناس سواسية، ومن حق كل فرد أن يقاضي رئيس الدولة. وسجلات التاريخ مليئة بالتطبيقات العملية لهذا الحكم، وإذا كان لرئيس الدولة من حق خاص، فهو الطاعة من الناس فيما يرضي الله تعالى، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق تعالى.

وإذا خالف فرد ما هذه الطاعة فهو مستحق للعقوبة أو التعزيز بحسب حجم المخالفة،... ولكن أبا بكر يذهب إلى أبعد من هذا...

عن عبدالله بن عمرو بن العاص: أن أبا بكر الصديق قام يوم الجمعة فقال: إذا كان الغداة فاحضروا صدقات الإبل، نقسم. ولا يدخل علينا أحد إلا بإذن.

فقال امرأة لزوجها: خذ هذا الخطام، لعل الله يرزقنا جملاً.

فأتى الرجل، فوجد أبا بكر وعمر، وقد دخلا إلى

الإبل، فدخل معهما. فالتفت أبو بكر فقال: ما أدخلك علينا؟ ثم أخذ منه الخطام فضربه.

فلما فرغ أبو بكر من قسم الإبل، دعا بالرجل، فأعطاه الخطام وقال: استقد.

فقال له عمر: والله لا يستقيد، لا تجعلها سنة.

قال أبو بكر: فمن لي يوم القيامة؟

فقال عمر: أرضه.

فأمر أبو بكر غلامه أن يأتيه براحلة ورحلها وقطيفة وخمسة دنانير فأرضاه بها^(١).

إن الرجل خالف ما أمر به أبو بكر، ويستحق العقوبة، ولكن أبا بكر لا يزن الأمور بهذا الميزان، إنما يتعامل معها وكأنه في الموقف يوم القيامة، وبهذا التعامل يمكن أن تسوى الأمور تسوية مضمونة لا تدخلها الريبة. في وقت يده زمام المبادرة للأخذ بتلك التسوية، قبل أن يأتي ذلك اليوم العظيم.

واطمأن أبو بكر إلى رضى الرجل بعد أن دفع له ما دفع.

وعاد الرجل براحلة ورحلها. . ولكنها من مال أبي بكر رضي الله عنه.

(١) «كنز العمال» ٥٩٥/٥ رقم (١٤٠٥٨).

عفوت ماجوراً

كتب عمر بن الخطاب إلى فيروز الديلمي:

أما بعد، فقد بلغني أنه قد شغلك أكل اللباب بالعسل،
فإذا أتاك كتابي هذا فاقدم على بركة الله، فاغزُ في
سبيل الله.

فقدم فيروز، فاستأذن على عمر، فأذن له، فزاحمه فتى
من قریش، فرفع فيروز يده فلطم أنف القرشي، فدخل
القرشي على عمر مستدمياً.

فقال له عمر: مَنْ فعل بك؟

قال: فيروز، وهو على الباب.

فأذن لفيروز بالدخول، فدخل، فقال: ما هذا يا فيروز؟

قال: يا أمير المؤمنين، إنا كنا حديث عهد بملك،
وإنك كتبت إليّ ولم تكتب إليه، وأذنت لي بالدخول ولم
تأذن له، فأراد أن يدخل في إذني قبلي، فكان مني ما قد
أخبرك.

قال عمر: القصاصُ.

قال فيروز: لا بد؟

قال: لا بد.

فجثى فيروز على ركبته، وقام الفتى ليقصص منه.

فقال له عمر: على رسلك أيها الفتى، حتى أخبرك بشيء سمعته من رسول الله ﷺ، سمعته ذات غداة وهو يقول: (قُتِلَ اللَّيْلَةُ الْأَسْوَدُ الْعَنْسِيُّ الْكَذَّابُ، قَتَلَهُ الْعَبْدُ الصَّالِحُ فَيَرُوزُ الدِّيلَمِيُّ) أفترأق مقتصاً منه بعد إذ سمعت هذا من رسول الله ﷺ.

قال الفتى: قد عفوت عنه إذ أخبرتني عن رسول الله ﷺ بهذا.

فقال فيروز لعمر: (أفترأق هذا مخرجي مما صنعت).
إقراي له وعفوه غير مستكره؟

قال: نعم.

قال فيروز: فأشهدك أن سيفي وفرسي وثلاثين ألفاً من مالي هبة له.

قال عمر: عفوت مأجوراً يا أبا قريش، وأخذت مالاً^(١).

(١) «كنز العمال» ٥٧٢/١٣ برقم (٣٧٤٧٣) عن ابن عساکر.

أنا المسؤؤل عنهم

مضى هزيع من الليل، وقد أوى الناس إلى منازلهم، يأخذون حاجتهم من الراحة بعد عناء يوم من عمل . . وفقاً لسنة الحياة التي أودعها الله فيها، إذ جعل الليل لباساً والنهار معاشاً.

وقام هو ومولاه «أسلم» يطوفون في أزقة المدينة، يستطلعون أمور الناس من وراء وراء . . فربما وجدا من هو بحاجة إليهما . . .

واستوقفته أصوات بكاء صبية صغار، استطاعت أن تخترق الجدران لتصل إلى الطريق . . .

قد يبكي صبي لألم أصابه، أو حاجة ما . . . ، أما أن يبكي الجميع معاً فذلك ما حيره، ودفع به تلقائياً إلى طرق الباب .

ووقع بصره على المشهد عندما فتح الباب . . امرأة في جوف دارها وحولها صبية يبكون، وأمامهم - على النار - قدر .

قال عمر: يا أمة الله، ما بكاء هؤلاء الصبيان؟!!

قالت: بكاؤهم من الجوع.

قال: فما هذه القدر التي على النار؟!!

قالت: قد جعلت فيها ماء، هو ذا، أعللهم حتى يناموا، وأوهمهم أن فيها شيئاً... .

وبكى عمر... . بكى مع الأطفال، ولكن الدافع لبكائه كان أمراً آخر... . وإنما يبكي مثل عمر للأمر الجلل... . كيف يحدث هذا في دولة الإسلام؟ كم كان مقصراً إذ لم يصل إلى علمه أمر هؤلاء وأمثالهم... !!

وماذا يصنع وقد ربى الإسلام المسلمين على عزة النفس، فارتفعوا عن الطلب وكانوا كما وصف القرآن الكريم ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] ولولا بكاء هؤلاء الصبية... . لما اكتشف أمرهم هو ولا غيره... .

ذلك ما دار بذهنه وهو يقف أمام المشهد وقد عرف حقيقته... .

ثم قام مسرعاً إلى دار الصدقة، وأخذ غراره وجعل فيها شيئاً من دقيق وشحم وسمن، وتمر وثياب ودراهم حتى ملأ الغرارة، ثم قال:

يا أسلم، احمل عليّ.

قال أسلم: فقلت: يا أمير المؤمنين، أنا أحمله عنك!!
فقال لي: لا أمّ لك يا أسلم، أنا أحمله لأنني أنا
المسؤول عنهم في الآخرة.

وحمل أمير المؤمنين الغرارة على ظهره، حتى أتى بها
منزل المرأة، فأخذ القدر فجعل فيها دقيقاً، وشيئاً من شحم
وتمر، وجعل يحركه بيده، وينفخ تحت القدر.

قال أسلم: فرأيت الدخان يخرج من خلال لحيته،
حتى طبخ لهم، ثم جعل يغرف بيده ويطعمهم حتى
شبعوا.

ثم خرج.. وجلس ينتظر خارج البيت.

قال أسلم: وخفت أن أكلمه.

ولم يزل كذلك حتى لعب الصبيان وضحكوا. ثم قام
فقال: يا أسلم، تدري لم فعلت هذا؟
قلت: لا.

قال: رأيتهم يبكون، فكرهت أن أذهب وأودعهم حتى
أراهم يضحكون، فلما ضحكوا طابت نفسي^(١).



(١) «كنز العمال» ٦٤٨/١٢ برقم (٣٥٩٧٨) عن ابن عساكر.

مِيَادِين التَّنَافُس

كان الناس، وما زالوا، يتنافسون ويتسابقون في مجال الحياة الدنيا ومتاعها، من مال وأثاث ورياش.

وكانت هذه الأشياء، وما زالت، وسائل للتفاخر، وقد حكى القرآن الكريم ذلك فقال: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا﴾ [سبأ: ٣٥].

وجاء الإسلام، فأبقى باب التنافس مفتوحاً، ولكنه في هذه المرة مفتوح على سبيل الخير الموصلة إلى رضوان الله سبحانه وتعالى.



الفقراء والأغنياء

عندما نقرأ العنوان، تتوارد الخواطر إلى أذهاننا عن نظام الطبقات.. والصراع الدامي بين الفقراء والأغنياء.. وتترأى أمام مخيلتنا مناظر التعاسة التي تعيشها الطبقات الفقيرة.. نتيجة للظلم والاستغلال والاضطهاد..

تلك قضية ارتبطت بجغرافية من الأرض معينة، وبواقع تاريخي معين، وهي ليست على خارطة العالم الإسلامي وليست في تاريخه. فالإسلام قد لا يستطيع إلغاء الفقر باستمرار - كما هو الشأن عند قوة الدولة المسلمة - ولكنه لا يقر الظلم ولا الاستغلال..

ومهما يكن من أمر فحديثنا ليس في مجال ذلك الخاطر، إنه حديث عن شكوى، مجرد شكوى!!

فقد جاء فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ يقدمون له شكواهم ضد الأغنياء.

لم يكن في حيثيات هذه الشكوى أن الأغنياء ظلموا الفقراء حقاً لهم. أو أنهم تأخروا بدفع أجورهم عندما

عملوا لهم، أو أنهم استغلوا حاجتهم فأعطوهم أقل مما يستحقون من الأجر، أو أنهم أهملوا واجبهم في مد يد المساعدة إليهم، أو أنهم مثؤا عليهم بتلك المساعدة..

لم يكن في الدعوى شيء من هذا. فلنستمع إلى مرافعة الفقراء كما يرويها أبو هريرة. قال:

«إن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور^(١) بالدرجات العلى^(٢)، والنعيم المقيم». فقال: (وما ذلك؟).

قالوا: «يصلُّون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدَّقون ولا نتصدَّق، ويعتقون ولا نعتق»^(٣).

إنهم يرون قدرة الأغنياء على المساهمة في أعمال البر والخير، من صدقة وعتق وغير ذلك، وهم لا يستطيعون القيام بمثلها بسبب فقرهم، وهم راغبون في تحصيل الأجر مثل إخوانهم، حتى لا يظهر تقصيرهم يوم الحساب.

إنها شكوى غريبة في موضوعها؟! فهي لا تطالب بمصادرة أموال، أو كفَّ أيدي، أو الحجر على تصرف..

(١) الدثور: واحدها دثر، وهو المال الكثير.

(٢) أي: كأنهم لم يتركوا لنا شيئاً.

(٣) رواه البخاري برقم (٨٤٣)، ومسلم - واللفظ له - برقم

(٥٩٥).

ولكنها تطرح مشكلة التفاوت في أرصدة الخير، فكيف يعمل الفقراء لتدارك هذا النقص؟!

ويرشدهم ﷺ إلى طريق يوصلهم إلى بغيتهم فيقول:
(أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم، إلا من صنع مثل ما صنعتم؟).

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: (تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة)^(١).



إنه تنافس.. ولكنه في ميدان العطاء. وتزاحم.. ولكنه في ميدان البذل.

عن أبي مسعود الأنصاري، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر بالصدقة انطلق أحدنا إلى السوق فيحامل فيصيب الممد^(٢).

كان أبو مسعود يتحدث عن نفسه، وعن أمثاله، الذين ما كانوا يجدون ما يتصدقون به. فكان الواحد منهم يذهب

(١) تنمة الحديث السابق.

(٢) رواه البخاري برقم (٢٢٧٣).

إلى السوق فيحمل للناس أمتعتهم على ظهره، ثم يأتي
فيتصدق بأجرته..

وفي مثل ذلك ورد قوله ﷺ: (سبق درهم مائة ألف
درهم...^(١)) إن الصدقة لا تقاس بمقدارها وحجمها..
وإنما ترجع إلى اعتبارات كثيرة ليتحقق العدل المطلق..
ذلك فضل الله.

فهل غير الإسلام يفعل ذلك؟!

إنها حرارة الإيمان تدفع الجميع - الفقراء والأغنياء - في
اتجاه واحد، فلا تصادم، ولا صراع، ولا إهدار للطاقات
في ذلك.

إنهم سمعوا نداء ﴿وَسَارِعُوا...﴾^(٢) فلبى جميعهم
النداء.



(١) أخرجه ابن خزيمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:
(سبق درهم مائة ألف) قالوا: يا رسول الله، كيف يسبق درهم مائة
ألف؟ فقال: (رجل كان له درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به، وآخر
له مال كثير فأخذ من عرضها مائة ألف).

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٣٣ في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ
مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾.

النساء والرجال

ظلت المرأة على هامش الحياة في كل العصور، وفي كل الأقطار، وقد نوقشت في أوربا في يوم من الأيام قضية إنسانيتها؟! .. وتقدم الزمن وجاءت مدنية العصر الحديث لتقرر مساواة المرأة بالرجل .. وأصبحت بعد ذلك خادمة في مطعم، ومنظفة للطريق، وساعية بريد .. فزادت هامشيتها .. وانحدرت اهتماماتها وباتت محصورة في إطار تحصيل ما تحتاج من نفقة .. وأهدرت كرامتها مرة أخرى باسم التقدم والمساواة.

وجاء الإسلام، حين جاء، فكانت دعوته للرجال والنساء على حد سواء، وكانت المرأة إنساناً فاعلاً في كل المجالات منذ بدء الدعوة:

كان المؤمن الأول امرأة .. تلك هي السيدة خديجة .

وكان الشهيد الأول امرأة .. تلكم هي سمية أم عمار .

وفي طليعة أول هجرة كانت امرأة مع زوجها .. تلكم هي بنت رسول الله ﷺ مع زوجها عثمان .

وهكذا أخذت المرأة دورها، مؤمنة صادقة، فاعلة مؤثرة في الأحداث.

واستطاع الإسلام بتربيته أن يزيح عنها ركام التخلف والهامشية، فباتت يقظة واعية، تتعامل مع آيات الله تعالى، وتستجيب لها تماماً، كما هو شأن الرجال الصادقين. فتسأل عما يهمها أمره، وتناقش فيما يعينها. . وتنزل الآيات بسببها، ويسمع الله قولها^(١). . وتقف في وجه الخليفة لتصحح له حكماً شرعياً^(٢). . كل ذلك يحدث في ظل الإسلام.

هذا الدور الفاعل، وهذه المكانة المشرفة، ارتفعت باهتمامات المرأة - كما ارتفعت باهتمامات الرجل - فجعلها تتجه في تفكيرها إلى القضايا الإيمانية، بعيداً عن سفاسف الأمور. . تتجه بتفكيرها إلى تحصيل ما يرضي الله تعالى، وإلى تسجيل الخير في صحيفة أعمالها. . إنها تتطلع إلى ما أعدّ للمؤمنين والمؤمنات عند الله تعالى. وهكذا أضحت في المسار الصحيح.

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١٧﴾ [المجادلة].

(٢) وقف عمر بن الخطاب يوماً على المنبر يريد تحديد المهور. فنادته امرأة من صفوف النساء وقالت: ليس لك ذلك. قال: ولم؟ قالت: لأن الله يقول: ﴿وَمَا تَيْسَّرُ مِنْهُنَّ إِحْدَهُنَّ قِنطَارًا﴾ فقال: أخطأ عمر وأصاب امرأة.

ومن هذا الميدان انطلقت أسئلتها في شؤون دينها
وأخرتها.

قالت أم سلمة: قلت: يا رسول الله، لا أسمع الله
تعالى ذكر النساء في الهجرة بشيء؟! فأنزل الله تعالى:

﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِنْ
ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ
دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ
وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ (١) [آل عمران].

إن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تعلم أن القرآن يستعمل أسلوب
«التغليب» حينما ينادي بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾
فليس المقصود هو الرجال وحدهم، بل مَنْ حمل صفة
الإيمان من رجال ونساء. وعندما يتحدث عن المهاجرين
فليس المقصود الرجال فقط. إنها تعلم هذا ولكنها ترغب
أن يذكر النساء صراحة.. وهي إحدى المهاجرات الأوائل،
لتطمئن يقيناً على ثواب عملها.

وهذه أم عمارة الأنصارية تقول: أتيت رسول الله ﷺ
فقلت: ما أرى كل شيء إلا للرجال، وما أرى النساء
يذكرن بشيء، فنزلت:

(١) رواه الترمذي برقم (٣٠٢٣).

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ
وَالْقَنِاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ
وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ
فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ
لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾^(١) [الأحزاب].

وهكذا يذكر النساء إلى جانب الرجال على قدم المساواة في الأجر، في كل ميادين البر والعمل الصالح.

وتنظر عائشة أم المؤمنين إلى القرآن وهو يتحدث عن فضل الجهاد في سبيل الله وأجر المجاهدين. فتجد فيه عملاً من أفضل الأعمال، فيدفعها إغراء الأجر والثواب أن تطلب المشاركة في القتال في سبيل الله على الرغم من علمها بأن هذا العمل لا يناسب طبيعة المرأة.

عن عائشة بنت طلحة عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: يا رسول الله، نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد؟

قال ﷺ: (لا، لكن أفضل الجهاد حج مبرور)^(٢).

إنه تشريع الله تعالى، الرحيم بعباده، ومن رحمته أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها.

(١) رواه الترمذي برقم (٣٢١١).

(٢) رواه البخاري برقم (٢٧٨٤).

وننظر في تطلعات هؤلاء النساء رضي الله عنهن فنجدها
جميعاً في اتجاه واحد، هي المشاركة في أعمال البر، وأن
يكون لهن مجال في الحصول على الأجر عند الله.. في
كل الميادين التي يعمل بها الرجال...
إنها منافسة أو مشاركة، ولكنها في طاعة الله تعالى.



سبقناكم

وذهبت لزيارتها، فقد مضى على آخر مرة رأتها فيها ثلاثة عشر عاماً، كان ذلك قبل مغادرتها مكة مهاجرة مع زوجها إلى الحبشة، في هجرة المسلمين الثانية.

كان شوقها إليها شديداً، وها هي الآن تلتقي بها، وقد تغير الزمان، والمكان، إنهما اليوم في المدينة، دار الهجرة.. ودار بينهما الحديث، وكان لدى كل منهما ما تقصُّه على الأخرى.. فقد كانت الأيام الماضية حافلة بالأحداث والوقائع.. التي تجاوز الحديث عنها أرض العرب إلى البلدان المجاورة.

وقطع حديثها طرق الباب...

إنه عمر، وقد جاء لزيارة ابنته، ولما رأى سواد زائرتها قال: من هذه؟

قالت حفصة: أسماء بنت عُمَيْس.

قال: الحبشية هذه؟ البحرية هذه^(١)؟

قالت أسماء: نعم.

قال - مماًزحاً -: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله منكم.

ومرت بذاكرتها أيام وأيام، قضتها - مع من كان معها من المسلمين - في دار الغربية، في أرض الحبشة، حيث البُعد عن القوم والأهل، وحيث الغربية في اللغة والدين، والأعراف والتقاليد...

أيام مُرّة، يلطف من قسوتها أنها في ذات الله تعالى...

كانوا بعيدين عن رسول الله ﷺ... ولكنهم كانوا بانتظار أوامره، فهم في طاعة الله وطاعة رسول الله.

ومرّ شريط تلك الأيام التي كانت بطيئة بطيئة... ثلاثة عشر عاماً. قضيت يوماً بعد يوم بانتظار الفرج ومجيء يوم العودة.

مرّ هذ الشريط في ذاكرتها سريعاً عندما قال عمر كلمته «سبقناكم...» فأغضبها ذلك، حتى ولو كان ماًزحاً.

(١) أي: التي كانت في الحبشة، والتي ركب البحر في طريق عودتها وذهابها.

قالت أسماء: كلا والله!! كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في دار البُعداء والبغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسوله ﷺ . . . كنا نؤذى ونخاف . . .

وجمعت ثيابها قائلة: وايم الله، لا أطعم طعاماً ولا أشرب شرباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ .
وبرت يمينها . . لتسمع قول رسول الله ﷺ :

(ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان)^(١).

أجل، هجرتان:

هجرة إلى الحبشة.

وهجرة إلى المدينة.

كان تقدير أسماء، في تقدير الأجر والثواب صادقاً كل الصدق، ويكفيها في ذلك أن يقرها ﷺ على ما ذهبت إليه.

هجرتان لجعفر وأصحابه . . نبأ انتشر في أرجاء المدينة.

(١) رواه البخاري برقم (٤٢٣٠).

وجاء أصحاب السفينة، يتأكدون من صحة الخبر...
فكان ذلك يوماً من أيام أعيادهم.

قالت أسماء: فلقد رأيت أبا موسى، وأصحاب السفينة
يأتونني أرسالاً، يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا
شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم
النبي ﷺ.

بل إن أبا موسى كان يستعيد أسماء هذا الحديث مرة
بعد أخرى، فإن سماعه كان يدخل السرور على نفسه...
تلك كانت ميادين سباقهم رضي الله عنهم جميعاً...



اليوم أسبق أبا بكر

التنافس في ميادين الحق والحكمة وفعل الخير أمر يشجعه الإسلام، بل ويدفع إليه، بل إن الحسد الذي حرّمه الإسلام يأذن فيه إذا كان في هذه الساحات.

فعن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (لا حسد إلا في اثنين: رجل آتاه الله مالاً فسلط على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها)^(١).

هذا التنافس يؤدي إلى نهضة المجتمع وتقدمه، وتطبيق أمره تعالى في قوله: ﴿وَسَارِعُوا...﴾^(٢) والإنسان يحاول أن يسرع، ولكن إذا كانت هذه المسارعة جماعية، أو بتعبير آخر، يشارك فيها الكثير، فإن الهمم تستنهض، ويصبح الإنسان أقدر على التقدم.

(١) رواه البخاري برقم (٧٣).

(٢) ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَعْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ [آل عمران: ١٣٣].

ومن هذا المنطلق جاء التنافس بين الصحابة فيما يرضي الله تعالى، وما يرضي رسوله ﷺ، وهما أساس كل خير. وقد شارك في هذا التنافس . . كبار الصحابة. ولترك الحديث إلى عمر رضي الله عنه:

قال عمر: أمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتصدق، ووافق ذلك مالا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر، إن سبقته يوماً، فجئت بنصف مالي.

فقال رسول الله ﷺ: (ما أبقيت لأهلك؟).

قلت: أبقيت لهم.

قال: (ما أبقيت لهم؟).

قلت: مثله.

وأتى أبو بكر بكل ما عنده.

فقال: (يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟).

فقال: أبقيت لهم الله ورسوله.

قلت: لا أسبقه إلى شيء أبداً^(١).



(١) أخرجه الدارمي وأبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح، وغيرهم. عن «كنز العمال» ٤٩١/١٢ ح (٣٥٦١١).

الطاقات المتواضعة

لم يكن المسلمون في وقت من الأوقات أكثر من عدوهم عدة وعتاداً، ومع ذلك فقد أحرزوا انتصارات كثيرة كانت السبب في نشر الإسلام في طول الأرض وعرضها.

لم ينتظروا حتى يكونوا أقوى من أعدائهم، ولكنهم بذلوا ما لديهم من إمكانيات وقدموا ما عندهم من طاقات.. وتوكلوا على الله.

لم يقصروا في الإعداد، ولم يهنوا أمام كثرة أعدائهم، ذلك أنهم يملكون الإيمان، الذي لا يملكه أعداؤهم وهو في مقدمة عناصر القوة..

إنها طاقات متواضعة ولكن وراءها الإيمان والإرادة..



سيف بغير ترس

لم تذكر السيرة اسمه، على الرغم من ورود قصته في «الصحيح»^(١).

إنه رجل من حمير، خرج إلى المعركة، ليس معه إلا سيفه، إنه الشيء الوحيد الذي يحمله..

ونحر رجل من المسلمين جزوراً ليطعم بعض القوم.. وكان الرجل ممن طعم..

لم يكن ملء بطنه هو الذي يشغل باله، فالقوم قد تعودوا الصبر على الجوع، فصحبتهم مع الصبر غير قصيرة، فقد ألفوه وألفوه..

كان الذي يشغل باله، هو جلد ذاك الجزور.

كان يختلس النظر إليه خلال طعامه.. مرة بعد مرة.

(١) الحديث أخرجه مسلم برقم (٢٨٤١)، و«الفتح الرباني»

وقام القوم عن الطعام . . وذهب كل منهم لإعداد نفسه
فهم قادمون على معركة .

وقام الرجل إلى جلد الجزور، فأخذ قطعة منه، ثم
بسطها على الأرض وأوقد عليها النار حتى جفت . . ثم
جعل منها ترساً . . يتقي به ضربات العدو في المعركة . .
كان ذلك في غزوة مؤتة . .

حيث قابل المسلمين فيها أخلاط من الروم ومن العرب
من قضاة وغيرهم . .
كان القتال شديداً . .

كانت شدته متناسبة مع قلة عدد المسلمين وكثرة
أعدائهم . .

وكان في صفوف الأعداء رجل رومي على فرس أشقر،
تحته سرج مذهب ومنطقة مثل ذلك . . وسيف مثل ذلك . .
كانت عدته كاملة تدل على الغنى والثراء، وكان له من قوته
وفنونه وجلده ما يتناسب مع مظهره . .

كان أثره في المسلمين كبيراً . .

وساء صاحب الترس ما رأى، وكيف له به . . وهو
يقاتل راجلاً، وذاك يقاتل فارساً . .

ولم يعدم الحيلة . . والحرب خدعة .

فلم يزل الجُمَيْرِي يحتال، حتى مرّ به الرومي، فلما

استتفاه ضرب عرقوب فرسه بسيفه، فوق . . ثم كانت معركة وقتل الرومي . .

إنها صورة لرجل من المسلمين سجلتها السيرة . . ومعظم المسلمين يومئذ كانوا كذلك .

إنها إمكانات متواضعة .

إنه السيف . . وإذا أضيف إليه جلد بعير فتلك العدة . .

إنها طاقات متواضعة .

ولكنه كان وراءها إيمان غير متواضع، إيمان متصل بالسماء، لا يقف في وجهه عدة ولا عتاد .

وبهذا انتصر المسلمون في مؤتة وغيرها .

وبهذا الإيمان . . وبهذه الطاقات وصل الإسلام إلى أرجاء المعمورة .

ألسنا نملك اليوم أكثر من جلد البعير؟! ثم نكون سبباً في انحسار الإسلام عن كثير من بقاع الأرض . .

إنه عندما انحسر الإيمان عن النفوس، صاحبه انحسارات كثيرة في دنيا المسلمين .

إننا بحاجة إلى استعادة العنصر الأساس، إنه الإيمان، الذي لا يكون خطبة في حفل ولا تبجحاً في حديث صحفي، ولا رداء يلبس في المناسبات .

إنه الإيمان الذي مقره القلب . . ثم ينساب مع الدم إلى كل أطراف الجسم وحواسه فيفجر طاقاتها . . فإذا المسلم كما قال الله في الحديث القدسي:

(كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به . . .)^(١).



(١) رواه البخاري برقم (٦٥٠٢).

غير سهمك أردنا

بدأت طلائع المجاهدين تغادر المدينة تنفيذاً لأمر رسول الله ﷺ.

ولكن وائلة بن الأسقع لم يكن قادراً على المشاركة، فهو لا يملك الزاد ولا الراحلة.. والمكان المقصود بعيد.. إنه تبوك.

كان يدخل بيته ثم يخرج.. وتكرر هذا منه.. إنه في حيرة شديدة وألم نفسي عظيم.. إن نفسه لا تطاوعه أن يتخلف عن رسول الله ﷺ.. كما أنه لا يملك الطعام الذي يكفيه شهراً من الزمن أو أكثر.. كما لا يملك الراحلة..

كان دخوله وخروجه وذهابه ومجيئه لغير معنى، ولكنه فعل الرجل المهموم الذي لا يدري كيف يتصرف..

ثم هداه تفكيره إلى أمر لم يتأخر في الإقدام على تنفيذه.

وها هو يدور في طرقات المدينة منادياً بأعلى صوته:

ألا من يحمل رجلاً وله سهمه، ألا من يحمل رجلاً وله سهمه .

وسمع نداءه شيخ من الأنصار فناده وقال له: لنا سهمه على أن نحمله عقبه، وطعامه معنا.

قال: نعم .

قال الأنصاري: فسِر على بركة الله .

تلك هي الاتفاقية وعقد الشراكة:

يحملة عقبه أي: يتناوبان الركوب مسافة الطريق، فالأنصاري لا يملك غير راحلته، فهو يشاركه التناوب عليها . .

وكذلك الطعام ليس هناك ما هو فائض عن حاجته، ولكن طعام الواحد يكفي الاثنين، وبخاصة في مثل تلك الظروف الصعبة .

أما المقابل لذلك: فهو أن ما يحصل عليه واثلة من غنيمة المعركة يكون لصاحبه الذي حملة . .

وانطلق القوم على بركة الله . .

ولم يكن قتال ولا غنيمة، سوى أنه ﷺ أرسل سرية من القوم بقيادة خالد بن الوليد إلى أكيدر فغنمت، وكان واثلة أحد أفرادها .

قال وائلة: فأصابني قلائص^(١) فسقتهن حتى أتيته..

فقال: سقهن مقبلات، ثم قال: سقهن مدبرات..
فقال: ما أرى قلائصك إلا كراماً.

قال وائلة: إنما هي غنيمتك التي شرطت لك.

قال: خذ قلائصك، يا ابن أخي، فغير سهمك أردنا^(٢).

إنها طاقات متواضعة.. استطاعت أن تصنع النصر،
صنعتة بما كان وراءها من الإيمان..

إن الذي صنعها وصنع غيرها هو هذا الصحابي
وأمثاله، ممن حملوا فكرة «غير سهمك أردنا».

لم يدفعهم إلى عملهم الحرص على المادة والكسب
المرتبط بالدنيا، ولكن السهم الذي أجره عند الله مدخر
عنده إلى يوم الحساب.

وصنعها وائلة وأمثاله الذين كان حرصهم على المشاركة
في الجهاد ليس من أجل الدنيا.. فيها هو يتنازل عن غنيمة
في سبيل الوصول إلى أرض المعركة.

إن وائلة يقول الكلمة نفسها: «غير سهمك أردنا» فهو

(١) القلائص جمع قلوص، وهي الفتية من النوق.

(٢) رواه أبو داود (٢٦٧٦).

لم يخرج من أجل الغنيمة ولذلك يتنازل عنها.. لأنه هو
أيضاً يريد السهم الآخر.

إنها إمكانيات متواضعة، ولكن الله بارك فيها.. لأنها
وضعت خالصة له وفي سبيله..



تصحيح المفاهيم

حصن العدل

في الأبنية الضخمة . . والمدن الرئيسة . . تكون الأسوار .

ومهمة السور: ضمان الأمن والاستقرار، وهو وسيلة فاعلة لطلب السلامة .

وقد أقام الإسلام البناء والأسوار .

إنه بناء ضخم، دونه كل الأبنية، بناء شامخ لا تطاوله الأبنية بغض النظر على أماكنها وعصور إنشائها .

إنه بناء فريد في مادته، فريد في هندسته وتصميمه، فريد في مقاومته لأحداث الزمان .

نعم، إنه بناء ولكن:

ساحته الإنسان

ومادته الإيمان

ورباطه الأخوة في الله

فهو بناء يشد بعضه بعضاً، كالجسد الواحد. فهو البنيان المرصوص.

إنه شديد التماسك في السلم والحرب. متراص الصفوف في العبادات والعادات.

ذلكم هو البناء في مجتمع الإيمان.

ونترك الكلام للخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز ليحدثنا عنه.

فقد كتب إليه بعض عماله:

أما بعد: فإن مدينتنا قد خربت، فإن رأى أمير المؤمنين أن يقطع لها مالاً يرمئها به فعل.

فكتب إليه:

أما بعد: فقد فهمت كتابك وما ذكرت، فإذا قرأت كتابي هذا فحصنْ مدينتك بالعدل، ونقّ طرقها من الظلم، فإنه مرمتها. والسلام^(١).



(١) «تهذيب حلية الأولياء» (٢/٢٢٤) نشره المكتب الإسلامي.

التعريف بالدنيا

كان المسلمون يقرؤون القرآن بانتظار أداء فريضة الجمعة، حين أعلن المؤذن بالنداء إيداناً بحضور الخطيب ودخول الوقت.

وقام المصلُّون يعيدون المصاحف إلى أماكنها استعداداً لسماع الذكر، بينما جلس الخطيب - بعد السلام - على المنبر، يرتب أوراق خطبته، استعداداً لقراءتها، فقد كان من قراء الصحف، ولم يكن من العلماء، شأن كثير من خطباء المسلمين في هذا الزمان.

وبعد المقدمة، كان حديثه عن الدنيا، فذهب يهون من شأنها ويصغره، ثم أوغل في ذمها.. وأكثر في ذلك..

وانتظرت - كما انتظر غيري - أن يكون توجيه ما، عقب ذلك الحديث عن سوء الدنيا.. ولكن ذلك لم يحدث..

وكانت الخطبة الثانية.. وكان الدعاء الذي تلي من الأوراق أيضاً..

وخرجت من المسجد بعد أداء الصلاة، أراجع الخطبة في ذاكرتي، أحاول أن أتبين الغاية التي قصد إليها الخطيب.. فلم أعر على بغيتي.

والذي يبدو - والله أعلم - أن ذم الدنيا أصبح مقصوداً لذاته في ذهن بعض الخطباء..

ولو قلنا إن الخطيب لم يكن له غاية، سوى أداء هذه الشعيرة التي وظف من أجلها، وهو كثيراً ما يستفيد من التقنيات الجديدة، إذا أعجله الوقت، فيصوّر خطبة من كتب الخطب التي كثرت في الأسواق، ثم يذهب لإلقائها..

أما هموم المسلمين، وأما توجيههم، وأما تعليمهم، فهذا ليس من شأنه.. فهو مهمة العلماء الذين أبعدوا عن المنابر التي هي مكانهم..

ليس المقصود أن نتحدث عن الخطباء، ولكن موضوع الخطبة جرّنا إلى ذلك.

وبعد: فهل الدنيا مذمومة ومطلوب الابتعاد عنها؟!

لقد بدأ هذا الانحراف في الفهم ولما يمض القرن الأول.

وقد سجلت لنا السنة هذا الموضوع بما يصحح المسار، ويبين لنا الصواب فيه.

قال أبو نضرة: كان لرجل منا اسمه جابر حاجة عند عمر بن الخطاب في خلافته، فخرج إليه في طلبها حتى انتهى إلى المدينة ليلاً.

قال جابر: فقدمت عليه، وقد أعطيت فطنة ولساناً ومنطقاً. فأخذت في الحديث عن الدنيا، فصغرتها، حتى تركتها لا تساوي شيئاً..

وفي المجلس رجل أبيض يجلس إلى جانب عمر، فلما فرغت من قولي، قال:

كل قولك كان مقارباً إلا وقوعك في الدنيا.

وهل تدري ما الدنيا؟ إن الدنيا فيها بلاغنا إلى الآخرة، وفيها أعمالنا التي نجزي بها في الآخرة..

قال جابر: فأخذ في الدنيا رجل هو أعلم بها مني.

فقلت: يا أمير المؤمنين، من هذا الرجل إلى جنبك؟

قال: سيد المسلمين، أبي بن كعب^(١).

أجل - والله - إنه سيد المسلمين، كما قال عمر رضي الله عنه.

إنه الرجل الذي أمر الرسول ﷺ أن يقرأ عليه القرآن^(٢).

(١) أخرجه الإمام البخاري في «الأدب المفرد» برقم (٤٨٣).

(٢) الحديث متفق عليه (خ ٣٨٠٩، م ٧٩٩).

وهو واحد من أربعة حفظوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ (١).

وهو واحد من صحابة النبي ﷺ المواظبين على صحبته .

ولذا فهو أعلم بالدنيا منا، وكذا بالآخرة ..

إنه لم يوافق الرجل على وقوعه في الدنيا، إذ هي دار العمل للآخرة، والطريق المؤدي إليها .

وكان لا بد من تصحيح الخطأ.. ورجع الرجل إلى صوابه .

وهل الدنيا إلا الوقت الذي قدر الله لكل منا أن يعيشه على ظهر هذا الكوكب، في فترة إنما هي ابتلاء واختبار ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢٠].

فالدنيا لا تدم لذاتها، ولا تمدح لذاتها، وإنما يمدح فيها العمل الصالح، ويذم منها العمل الفاسد، ومرجع كلا العاملين للإنسان نفسه .

وإذا كان المقصود بدمها ترك السعي فيها، والإخلاد إلى العبادة بمفهومها الضيق، فهو أمر يتعارض مع منهج الإسلام وغاياته .

(١) الحديث متفق عليه (خ ٣٨١٠، م ٢٤٦٥).

لقد حضّ الإسلام على البذل والعطاء.. وإذا لم يكن عمل في الدنيا، فكيف يكون بذل.

وحضّ على أن تكون يد المسلم هي العليا.. في كل الميادين، ولا تكون اليد العليا إلا لمن عمل في الدنيا.

وحضّ على القوة، فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله، ولا تكون قوة باعتزال الدنيا والابتعاد عنها.

ويبلغ النبي الكريم ذروة الحض على أداء الإنسان دوره كاملاً في هذه الحياة عندما قال: (إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فاستطاع ألا تقوم حتى يغرستها، فليغرستها فله بذلك أجر)^(١).

ليس هناك فصل في الفكر الإسلامي بين العمل للدنيا والعمل للآخرة. فكلا الطرفين واحد.

إن الغاية التي يهدف إليها الإسلام، أن يستخر المسلم الدنيا فيجعلها طوع ما يريد في ابتغاء مرضاة الله تعالى، لا أن تسخره الدنيا بحيث تُبعده عن واجباته والتزاماته.

وقد نجح الإسلام أيما نجاح في إيجاد أناس عاشوا في الدنيا وعملوا بها بكل طاقاتهم وسخروها في طاعة الله، ولم يعيشوا للدنيا.

(١) عن «عمدة القاري» للعيني، باب الحرث والزراعة، عن أنس بإسناد حسن.

كان في الصحابة أغنياء كبار في مقدمتهم أبو بكر
وعثمان وابن عوف.. فكيف كانت دنياهم.. وهل كانت
إلا في مصالح المسلمين.

فيا ليتنا نضع الأمور في مواضعها، ونفهم إسلامنا الفهم
الصحيح.

ورضي الله عن أبي بن كعب حين قال: «إن الدنيا فيها
بلاغنا إلى الآخرة».



اَلْحَقَائِقُ بَعِيْدًا عَنِ الشَّكَلِيَّاتِ

حولها نندن

كان يصلي في زاوية من زوايا المسجد، عندما دخل رسول الله ﷺ في غير وقت صلاة.. فصلّى ركعتين، ثم جلس إلى مَنْ في المسجد من المسلمين.
وجاء الرجل فسلم وجلس..

وعلى عادته ﷺ من الاهتمام بكل أصحابه.. اتجه إليه قائلاً: (كيف تصنع يا ابن أخي إذا صليت؟)

وأجاب سليم الأنصاري بعفوية بعيدة عن التكلف فقال: أتشهد، ثم أسأل الله الجنة، وأعوذ به من النار. أما والله ما أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ..

وقال الرسول الكريم ﷺ - مستعملاً لفظ الرجل - (حولها نندن)^(١).

إنه الاطمئنان منه ﷺ على وضع أصحابه في كل شؤونهم، وهذا الفتى واحد منهم. وهذا الدعاء في بساطته

(١) أخرجه أبو داود (٧٩٢، ٧٩٣) وابن ماجه (٩١٠).

يمثل الاهتمامات التي سيطرت على نفوس القوم، فلم تعد الدنيا محل اهتمامهم.. فهي أيام ماضية.. ولكن القضية التي تشغل بال الجميع، هي قضية النجاة من النار والفوز بالجنة.

ولا شك بأنه ﷺ كان مسروراً من دعاء الرجل، فأقره عليه، ثم طمأنه بأن ما يدعوه به هو ومعاذ.. لا يخرج عن هذه الدائرة.

والدعاء هو اتجاه إلى الله تعالى بالقلب أولاً، ثم التعبير عما يجول في ذلك القلب بعيداً عن التكلف والسجع.

وهذا ما فعله سليم رضي الله عنه.

وقد حدث أن عبدالله بن مغفل رضي الله عنه سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها.

فقال عبدالله: أي بني، سل الله الجنة، وتعوذ به من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الدعاء)^(١).

وقد حدث هذا كما أخبر عنه الرسول ﷺ فقد أحدثت أدعية، بل وأدخلت بعض الأحيان في صلب الصلاة..

(١) أخرجه أبو داود (٩٦) وابن ماجه (٣٨٦٤)، ولفظ أبي داود:

(يعتدون في الطهور والدعاء).

فأحدثت بدع في وقت أحوج ما نكون فيه إلى الابتعاد عن
البدع والتمسك بالسنة.

أما ذِكْرُ معاذ في الموضوع، فذلك أن معاذاً كان الإمامَ
لقومه الأنصار، فكان يصلي مع النبي ﷺ ثم يعود فيصلي
بقومه. والرجل المسؤول من قوم معاذ، فلذا جاء ذكره مع
النبي ﷺ باعتباره الإمام.

فهل تكون أدعيتنا حول تلك الدندنة، ووفق ذلك الخط
الذي سنَّه النبي الكريم، بعيداً عن الرياء والتكلف
والابتداع.

نرجو الله ذلك.



حفرتان

قال الحسن البصري:

قدم علينا بشر بن مروان، أخو الخليفة وأمير المصّرّين،
وأشب الناس، وأقام عندنا أربعين يوماً، ثم طعن في قدميه
فمات.

فأخرجناه إلى قبره، فلما صرنا إلى الجبان، إذا نحن
بأربعة سودان، يحملون صاحباً لهم إلى قبره، فوضعنا
السريّر فصلّينا عليه، ووضعوا صاحبهم فصلّوا عليه.

ثم حملنا بشرأ إلى قبره، وحملوا صاحبهم إلى قبره،
ودفنا بشرأ ودفنوا صاحبهم، ثم انصرفوا وانصرفنا.

ثم التفتُ التفاتة، فلم أعرف قبر بشر من قبر الحبشي،
فلم أر شيئاً كان أعجب منه!!^(١).

وعجب الحسن، وحق له أن يعجب.

(١) «البيان والتبيين» ١٤٧/٣.

فالأمر يدعو إلى ذلك .

ولكن أين الحسن فينا الذي يعجب؟

ولو عاد الحسن بعد يومين إلى المقبرة، لاختلط عليه
القبران بما سبقهما، فلم يميزهما من غيرهما . .

نعم . . لو عاد لكان له عجب آخر .

إنها قصة متكررة، فيها الموعظة لمن أراد الاتعاظ .

يعيش الناس في دنياهم في تفاوت كبير . فهم درجات
في الرفاهية والبؤس، والغنى والفقر . .

هناك الذين يجدون ما لا يأكلون، وهناك الذين لا
يجدون ما يأكلون .

هناك من بات طاوياً، وهناك من نقل إلى المشفى
بسبب التخمة .

هناك من ينام على الحرير، وهناك من لا يجد
الحصير .

مفارقات تدعو إلى الأسى أحياناً . . وإلى العجب أحياناً
أخرى، من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان .

ولكنهم جميعاً، ينتهي بهم المطاف إلى هذا المكان .
إنها نهاية لا مفر منها .

هنا يتساوى الجميع، ويذهب البؤس والرفاه، ويكون
الجميع أمام حقيقة واحدة، هي هذه الحفرة.

حيث لا يغني عن الغني غناه، ولا يضير الفقير فقره.
إنها نهاية وبداية.

نهاية حياة وبداية حياة.

حياة في هذه الحفرة، ولكنها إلى أمد.. ومع ذلك
ففيها نعيم وفيها عذاب.

فمرحى للذين يفوزون بنعيمها فهي عنوان لما بعدها.
وبؤسى للذين يكونون في الطرف الآخر.

والعجب كل العجب، ممن لم يحسب لنزول هذه
الحفرة حسابه!!.



الْعَمَلُ الْخَالِصُ

عندما يكون العلم لله

«عن ابن عباس قال: كنت أقرئ رجالاً من المهاجرين، منهم عبدالرحمن بن عوف، فبينما أنا بمنزله بمنى، وهو عند عمر بن الخطاب في آخر حجة حجّها..»^(١).

كنت أقرأ هذا الحديث في «صحيح البخاري»، ووقفت عند هذا الحد ولم أكمل، والحديث طويل.

فقد جذب انتباهي الاسمان الواردان في هذه المقدمة للحديث، اسم الراوي، واسم عبدالرحمن بن عوف.

أما ابن عوف: فهو أحد السابقين إلى الإسلام.

وأحد العشرة المبشرين بالجنة.

وأحد الستة الذين جعل عمر الشورى إليهم.

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٨٣٠).

وقَبْلَ ذلكَ : إنه واحد ممن حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ .

عبدالرحمن هذا يتلمذ على ابن عباس، هو وبعض المهاجرين، فيقرؤون عليه القرآن ويضبطونه .

وعبدالله يومئذ في سن بعض أبناء عبدالرحمن . .

إنه لم يرَ في ذلك غضاضة، فقراءة القرآن وتعلمه عبادة . .

إنها نفوس أخلصت عملها لله .

إنه أمر لم يرَ فيه المتعلم غضاضة رغم مكانته وكبر سنه، ولم يرَ فيه المعلم ترفُّعاً واستكباراً أن يتلمذ له هؤلاء الكبار .

إنها قصة من قصص السلف تشير إليها تلك الكلمات العابرة في مقدمة حديث ابن عباس . والذي لم يرد فيه ذكر ابن عوف إلا لارتباطه بتتمة الحديث الذي لم نكمله .

فلم يكن من قصد ابن عباس الحديث عن نفسه، ولا الدلالة على مكانته، فذلك أمر لم يخطر له على بال، كما هو واضح من سياق الحديث .

إن عبدالرحمن وأمثاله من المهاجرين الأولين شغلتهم الدعوة إلى الله، وتعاقبت الأحداث في زمنه ﷺ، فقد

كانت الغزوات والسرايا وأعمال الجهاد متتابعة متلاحقة،
الأمر الذي لم يتح لهم إيجاد الوقت لحفظ القرآن.

وها هم يعرضون بعض ما فاتهم على يد ابن عباس.

يا لله، ما أعظم هذه النفوس، فقد ارتقى بها الإيمان
إلى مستوى رفيع، فأضحت أعمالهم خالصة، خالصة من
كل شائبة مهما كان حجم هذه الشائبة.

أجل، إن هذا العلم دين، كما قال ابن سيرين.

ولهذا المفهوم بذل العلماء على امتداد القرون
أعمارهم، وألقوا شهوات نفوسهم وراء ظهورهم.. فكانوا
مشاعل الهدى بسلوكهم في حياتهم، كما كانوا كذلك بعد
مما تم بمؤلفاتهم.

إن علمهم لم يكن وسيلة لمنصب أو جاه، أو سمعة..
فإنهم وإن عاشوا في دنيا الناس، ولكنهم لم يعيشوا
لدنياههم، فكانوا مصابيح الهدى..

أجل، استوقفني هذا الجزء من الحديث.. ولعل
السبب في ذلك هو غربة ما يحمله من معنى، غربة
الإسلام في هذه الأيام..

فقد أضحى العلم شهادات لشغل المناصب، واجتذاب
الأبصار والأسماع، فتكلم من العالم منصبه ولم يتكلم
علمه، وتكلمت عباة ولم يتكلم وعيه ودينه، وبلغت

الجراءة على الله أن يفتي بحل الربا صاحب أكبر منصب ديني في بلد كبير من بلاد المسلمين، فلا حول ولا قوة إلا بالله.. (١).

لقد كانت الطامة الكبرى، حين وُظف العلم فأضحى مقابل الدنيا.. وقد كان لله.. وما يزال الناس بخير ما زال أناس يحملون العلم ابتغاء مرضاة الله.



(١) كتب هذا الموضوع في الوقت الذي جدد فيه هذا الشيخ فتواه بحل الربا مخالفاً كتاب الله تعالى وإجماع الأمة. ولعل هذه الفتوى كانت ثمن المنصب الذي يشغله. [انظر «مجلة المجتمع الكويتية» العدد (١٢٤١) لعام ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م].

أمير أم رسول؟

سوَّى الصفوف لصلاة الصبح، وكان علي وشك أن يكبر بالناس إماماً، إذ سمع رغاء، وتفحص الصوت فعرف فيه رغاء ناقة رسول الله ﷺ الجداء. فلم يكبر.

كان يتوقع أن يكون الرسول الكريم ﷺ على ناقته.. ولكن الراكب كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وكانت الكلمة الأولى - بعد رد السلام - من أبي بكر، قوله: أمير أم رسول؟ قال علي: بل رسول..

وأديت الصلاة.. يؤم الناس فيها أبو بكر رضي الله عنه.

كان ذلك بضجنان، في الطريق من المدينة إلى مكة على بُعد أربع وخمسين كيلاً من المدينة، حين أرسل الرسول ﷺ أبا بكر أميراً على الحج في العام التاسع من الهجرة.

وكان من مهمته أيضاً أن يقرأ على الناس الآيات الأولى من سورة براءة، والتي تنبذ للمشركين عهودهم..

وفي اليوم الثاني بعد خروج أبي بكر، أرسل النبي ﷺ علياً ليتولى مهمة قراءة الآيات في الموسم، مراعاة لما جرى عليه العرف بين العرب من أنه: لا يُجِلُّ العَقْدَ إلا من عَقَدَه، أو واحد من أهل بيته..
تلك هي قصة إرسال علي عليه السلام.

والذي يستوقف القارئ لها: قول أبي بكر لعلي - وهو علي وشك التكبير بالصلاة -: أمير أم رسول؟
أما كان يحسن أن يؤخر هذا السؤال إلى ما بعد الصلاة؟

أم هو الحرص على الإمارة؟ أو الخوف من انتزاعها منه؟

إنها أسئلة تتوارد على ذهن ويزاحم بعضها بعضاً.
وإذا ما تفحصنا الأمر، وجدنا أن تلك الأسئلة كلها ذهبت إلى غير ما ذهب إليه الصديق.. فكل ذلك لم يكن.

وكل ما في الأمر، أن من مهمات الأمير إمامة الناس بالصلاة، وكان لا بد من هذا السؤال.. حتى يتقدم إلى الإمامة - وقد أقيمت الصلاة - إن كان لا يزال أميراً، أو يتأخر إن كان مأموراً.

إنه الفقه في دين الله، والانضباط مع أوامره دون تأخير.

ومع هذا، فما يزال سؤال أبي بكر يستوقفنا.
يستوقفنا ببساطته وعفويته.

فأبو بكر هو الصاحب الأول لرسول الله ﷺ، وسابقته
في الإسلام أشهر من أن يعرف بها، وهو يومئذ يقارب
الستين من العمر..

وعلي يومئذ في سن أولاده..

ومن المستبعد أن يؤمر النبي ﷺ علياً على أبي بكر..

هذه الخواطر، وهذه المحاكمات العقلية، لا شك بأنها
لم ترد على ذهن أبي بكر، بل إنه في معزل عنها تماماً،
ولذلك جاء سؤاله عفويًا، لم تحكمه الصنعة، ولم تسبقه
المقدمات.

ولو قال علي: بل أمير. لم يكن أكثر من أن يتأخر
أبو بكر، ويؤم الناس علي..

إنه الانضباط، فليست المسألة مسألة السن، ولا مسألة
السابقة.. وإنما هي الطاعة لله ولرسوله وأولي الأمر.

وهنا تستبعد كل شواغل الفكر، وكل العوامل النفسية.
ويسيطر الإيمان.

إن الأمور عندما يقصد بها وجه الله، فلا فرق بين أن
تكون قائداً أو فرداً.. فتكون في الثغرة التي طلب منك أن
تسدها، أو تكون عليها.

وقد قال ﷺ: (طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة)^(١) أي: حيثما وُضِع، قام بمهمته خير قيام.

كان الأمر سيان لدى أبي بكر، فإن كان أميراً، فإنه ينفذ ما أوكل إليه، وإن كان مأموراً، فإنه ينفذ ما أوكل إليه، وكلاهما في طاعة الله تعالى.

وعندما تقاس الأمور بهذا الميزان العدل، فإنها تكون في الطريق الصحيح والمسلك القويم.

وبعد، فالإمارة في المفهوم الإسلامي ليست مغنماً يسعى إليه، وإنما هي المسؤولية، ليست المسؤولية أمام الناس فحسب، ولكنها المسؤولية أمام الله تعالى.

إنها ليست المركز والصيت والسمعة، والاحترام والتبجيل، والمغنم والرفاهية، كما هو شأنها في دنيا الناس اليوم، ولكنها الأمانة كما قال رسول الله ﷺ^(٢).



(١) أخرجه البخاري برقم (٢٨٨٧).

(٢) إذا كان الأمر كذلك - وهو كذلك - فكيف يُتهم أبو بكر ﷺ بالاستئثار بالخلافة؟! .

درس في الإخلاص

واستشهد القادة الثلاثة . .

ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله .

وكان النصر . .

وبعد النصر توزع الغنائم . .

وجاء رجل من المسلمين يطلب سلب قتيلٍ قتله أثناء
المعركة . .

كان السلب ذا قيمة كبيرة، إنه سرج مذهب ومنطقة
وسيف كذلك، إضافة إلى الدرع . .

فأعطاه خالد بعضه وجعل باقيه في غنائم المسلمين .

فقال عوف بن مالك: أما علمت يا خالد أن السلب
للقاتل؟

قال: بلى، ولكنني استكثرتة .

قال عوف: لأُعرِّفَنَّكَهَا عند رسول الله .

ورجع القوم إلى المدينة . وكان الفرح بالنصر يخالطه
الحزن على القادة، ومن استشهد معهم من المسلمين .
ودفع عوف بالرجل ليرفع أمره إلى الرسول ﷺ . .
ففعل .

واستدعي خالد :

وقال له الرسول ﷺ : (ما يمنعك يا خالد أن تدفع إلي
هذا سلب قتيله؟)

قال : استكثرت له ، يا رسول الله .

فقال : (ادفعه إليه) .

وانتهى الأمر . . وذهب خالد لينفذ الأمر . وكان عوف
في عداد الصحابة الذين كانوا عند رسول الله . . فلما مرّ به
خالد ، جذب عوف بردائه وقال له : هل أنجزت لك ما
ذكرتُ؟

وسمع رسول الله قوله . فأغضبه ذلك وقال : (لا تعطه
يا خالد ، لا تعطه يا خالد ، هل أنتم تاركون لي أمرائي؟)
إن إقامة العدل أمر واجب ، والسعي إليه من مزايا هذا
الدين .

ولكنه عندما تدخل حظوظ النفس في العمل الخالص لله
فإنها تفسده .

إن فعل عوف أغضب الرسول الكريم ، صلوات ربي

عليه وسلامه، لأنه خرج عن مساره الصحيح، لم يكن الدافع إليه إيصال الحق إلى صاحبه، وإنما كان واضحاً أن النيل من شخصية خالد، والتشفي منه، هو بعض الغاية التي سعى إليها عوف، وإلا لم يكن هناك من حاجة لأن يجرد رداءه.

إن خالداً لم يأخذ ما حجزه من السلب لنفسه، وإنما رده إلى غنائم المسلمين، وهو اجتهاد منه له ما يبرره... ومع هذا فقد رده الرسول الكريم إلى الأصل المقرر، فلما رأى انحراف الدافع أقره على اجتهاده.

إنه درس في احترام القادة، وبغير هذا الاحترام لا يكون نظام.

ولهذا كان قوله ﷺ: (هل أنتم تاركون لي أمرائي)^(١).

وإنه درس في إخلاص الأعمال لله تعالى، فلا تدخل حظوظ النفس ورغباتها فيما ينبغي أن يكون خالصاً لله تعالى.

وقد يتساءل بعضهم كيف منع رسول الله ﷺ الرجل حقه بسبب تصرف عوف؟

والحقيقة أنه لم يمنعه حقه، إذ لا يكون حقاً إلا بعد حوزته، والرسول ﷺ بقوله: (لا تعطه يا خالد) يقرر حق

(١) أخرجه مسلم برقم (١٧٥٣)، و«الفتح الرباني» ٨١/١٤ - ٨٢.

القائد في الاجتهاد في مثل هذه المواطن، وإذ يقر ﷺ هذا
الاجتهاد، فلم يعد ذلك حقاً.

رضي الله عن خالد، وعن عوف، وعن الرجل صاحب
السلب، فقد كانوا الجيل الأول الذي حمل هذا الدين إلى
الأجيال التالية..

وأن يخطئ عوف فكل ابن آدم خطاء، ولكن هذا
الخطأ كان سبباً في هذا الدرس الكريم في مفهوم
الإخلاص.



ایشان

كان الإيثار - بمعناه المعروف - حقيقة واقعة في المجتمع الإسلامي الأول، جيل الصحابة، وعندما نزل قوله تعالى: ﴿... وَيُؤْتُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] فإنما نزل لوصف ذلك الواقع وبيان حاله.

والوقائع والأمثلة هنا كثيرة كثيرة، يعرفها الكبير والصغير...

والذي أردناه - هنا - هو الوقوف على أمثلة ونماذج من الصفحة الثانية من سجل الإيثار التي قلما يلتفت إليها.



كنت أريده لنفسي

شارك في الغزوات كلها.. وقاد السرايا.. وشارك في بعضها فرداً من الأفراد.

كانت رغبته شديدة أن يموت شهيداً في سبيل الله، وذلك لما يعلم من عظم أجر الشهادة.. ولقد تعرض لها في مواطن كثيرة فلم يرزقها.

وكان تعلقه بالمدينة كبيراً.. فهو لا يريد مغادرتها.. بل لا يريد أن يموت في غيرها لو استطاع، وذلك لما سمع من رسول الله ﷺ من فضلها..

كان حريصاً على الأمرين معاً، ولذلك دعا الله تعالى فقال: «اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك ﷺ»^(١).

ولكن كيف يحدث ذلك!؟

المدينة اليوم بلد آمن، وهي مركز الدولة المسلمة، التي

(١) رواه البخاري برقم (١٨٩٠).

امتدت فضمت تحت لوائها مصر والشام والعراق . . .

والشهادة إنما تكون في ساحات الجهاد . . وهي اليوم
على حدود الدولة المسلمة بعيداً بعيداً عن العاصمة . .
ومسؤولياته لا تسمح له بالمشاركة في أعمال الجهاد.

أمران متعارضان: شهادة . . وموت بالمدينة!؟

وتساءلت ابنته حفصة - أم المؤمنين - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فقالت:
وأنى يكون هذا؟

قال: يأتي به الله إذا شاء.

كان أمله كبيراً أن يجمع الله له الأمرين، ويحقق له
رغبته. أما كيف يحدث هذا . . فذلك أمر لا يعرفه، ولا
يعرف سبيله . . ولكن يأتي به الله إذا شاء.



وتقدم يوماً ليؤم الناس في صلاة الفجر - كما هو شأنه -
وما أن بدأ صلاته حتى طعنه العليج أبو لؤلؤة . . .

وتبين أن الطعنة كانت قاتلة . .

فقالوا: أوص يا أمير المؤمنين.

وأيقن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بتحقيق رغبتيه: الشهادة . . والموت
بالمدينة.

واتجه ببصره إلى ابنه عبدالله بن عمر فقال له: «انطلق

إلى عائشة، أم المؤمنين، فقل: يقرأ عليك عمر السلام
- ولا تقل: أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً -
وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبه».

إنها تنمة الرغبة بالموت في المدينة، وهناك إنسان
واحد يستطيع تحقيق هذه الرغبة.. تلکم هي السيدة
عائشة، أم المؤمنين.

إنها ما زالت تعيش في غرفتها وفيها قبران.. وربما
ضيق عليها المكان وجود قبر ثالث.. ثم إنها صاحبة الشأن
بأمر مسكنها...

وانطلق عبدالله...

«فسلم واستأذن، ثم دخل عليها، فوجدها قاعدة تبكي،
فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام، ويستأذن أن
يدفن مع صاحبه».

فقالت: كنت أريده لنفسي، ولأثرنه به اليوم على
نفسي».

كان عمر مهتماً لهذا لأمر، وكان يخاف أن يقضي قبل
أن يصله الجواب، كما كان خائفاً أن يكون الجواب
بالرفض...

«فلما أقبل - عبدالله - قيل: هذا عبدالله بن عمر قد
جاء».

قال: ارفعوني.. فأسنده رجل إليه...

فقال: ما لديك؟

قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين، أذنت.

قال: الحمد لله، ما كان من شيء أهم إليّ من ذلك. فإذا أنا قضيت فاحملوني، ثم سلم فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي فأدخلوني، وإن ردتني، ردوني إلى مقابر المسلمين^(١).

واستقر في مثواه الأخير إلى جانب صاحبه.

وتحقق ظن علي رضي الله عنه الذي أفصح عنه بقوله - بعد أن علم بموافقة عائشة -: وايم الله، إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبك.. ذاك أني كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (جئت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر...) ^(٢).



وآثرت عائشة عمر بن الخطاب بهذا المكان...

وقد كانت أعدته لنفسها، وإنما هما: زوجها وأبوها..

(١) رواه البخاري برقم (٣٧٠٠).

(٢) متفق عليه.

وأن تكون معهم، فتلك رغبة كانت في نفسها، كما كانت في نفس عمر... .

ولقد أثرته على نفسها. . . وذلكم هو الإيثار^(١).

وكان لعائشة بعد ذلك سلوك جديد في منزلها لخصته بقولها: «لم أضع ثيابي عني منذ دفن عمر في بيتي»^(٢).

(١) في الواقع كان هناك متسع لها لو أرادت أن تُدفن معهم، وقد تساءل بعضهم: ما معنى الإيثار إذن؟ وقد ذكرت أجوبة كثيرة وكلها غير مقنع.

والذي أراه: أن الإيثار يرجع إلى معنى في دفنها قبل أن يكون في المكان عمر، ودفنها بعد أن يكون فيها.

فلو أنها دفنت فيه وعمر غير موجود فيه، لكان معنى دفنها فيه، أو تعليقه، هو: عامل القرابة، وإنما هما - كما قالت -: زوجها وأبوها، ولن يذهب الناس في تفسيره إلى معنى آخر.

أما بعد أن دفن فيه عمر، فقد أصبح للمكان معنى تذهب إليه الأفتدة والأفكار، فهو مكان قبر الرسول وقبر صاحبه ذوي السابقة في الإسلام، والفضل المجمع عليه. فدفنها هناك عندئذ ستكون النظرة إليه من هذه الزاوية وهو أن الحجرة إنما جمعت أهل الفضل في جيل الصحابة. وهي لا ترى نفسها أهلاً لذلك. ولهذا لما حضرتها الوفاة، قالت لعبدالله بن الزبير: «لا تدفني معهم. وادفني مع صواحي بالقيع، لا أركن به أبداً» رواه البخاري برقم (١٣٩١).

وتلك مفاهيم دقيقة، ومعانٍ سامية، حريٌّ بها أن تصدر عن أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) رواه ابن سعد وغيره، كما ذكره في «فتح الباري» ٦٦/٧.

قوم المغيرة

خضعت الجزيرة كلها للإسلام، وبقيت الطائف على ما كانت عليه، وكان ﷺ قد حاصرها. ثم تركها بعد استشارة أصحابه في ذلك.

وكان ﷺ حريصاً على انقيادها، فهي الجيب الأخير من مواطن الكفر التي انصاعت للإسلام، لم يبقَ غيرها.

أما أهل الطائف - وبعد أن رجع ﷺ عنهم - فقد وجدوا أنفسهم منفردين بهذا الموقف من الكفر وسط ساحة كبيرة من الإيمان، ووجدوا أنفسهم مضيقاً عليهم. فهذا مالك بن عوف الذي أمره النبي ﷺ على قومه... كان يغزو أرضهم ويغير على سرحهم... ورأوا أنفسهم وقد أصبحوا محاصرين بغير جنود، فقد بايع كل من حولهم وأسلم.

وذهب وفداهم إلى المدينة...

وكان المغيرة بن شعبة أول من رآهم، فذهب يشد مسرعاً ليبشر رسول الله ﷺ بقدمهم.

ولقيه أبو بكر فأحَبَّ أن يعلم خبره... علَّه يكون في أمر يحتاج إلى مساعدة، فسأله عن سبب سرعته فأخبره الخبر.

وكان أبو بكر يعلم مقدار سروره ﷺ بمثل ذلك الخبر، فقال للمغيرة: أقسمت عليك بالله، لا تسبقني إلى رسول الله ﷺ حتى أكون أنا أحدثه.

كل منهما يعلم سروره ﷺ بذلك، ولهذا أسرع المغيرة، وكل منهما يريد أن يدخل السرور عليه ﷺ.

وآثر المغيرة أبا بكر.. وعاد إلى الوفد - وهم قومه - وجعل يعلمهم كيف يُحيِّون رسول الله... .

أليس هذا هو الإيثار.



أبو خيثمة

انطلق القوم، وتخلف من تخلف، وكان لبعضهم عذره.

ثم انطلق بعض من تخلف بغير عذر، محاولاً تدارك ما فاته، والحسنات في شرع الله تعالى تذهب السيئات.

وكان من هؤلاء عُمَيْرُ بن وهب، وأبو خَيْثَمَةَ.

وانطلق كل منهما على انفراد، وهو لا يدري بالآخر، ثم جمعهما الطريق بعد ذلك.

كان الأمل أن يدركا رسول الله ﷺ في الطريق، وبذلا الجهد محاولين تحقيق ذلك الأمل.. ولكن تأخرهما في الخروج أكثر من يومين حال دون ذلك. فلم يدركاه إلا بعد أن وصل إلى تبوك.

ولما دنوا منها، قال أبو خيثمة لعُمَيْرِ بن وهب: إن لي ذنباً، فلا عليك أن تخلف عني حتى آتي رسول الله ﷺ...

واستجاب عمير لطلب أبي خيثمة...

ولما قرب أبو خيثمة من معسكر رسول الله ﷺ بتبوك،
قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل!!
فقال رسول الله ﷺ: (كن أبا خيثمة).

فقالوا: يا رسول الله، هو والله أبو خيثمة...

وأناخ أبو خيثمة، ثم أقبل فسلم على رسول الله ﷺ،
فقال له: (أولئ لك يا أبا خيثمة...) ثم دعا له
بخير...^(١).

وآثر عمير أبا خيثمة بلقاء الرسول ﷺ أولاً ليذهب
ب(كن أبا خيثمة).



(١) «سيرة ابن هشام» ٥٢٠/٢.

الفقر الملتزم

أن يكون الإنسان فقيراً، فيصبر على الفقر، فذلك أمر لا غرابة فيه .

وأن يكون صاحبَ نسك، بعيداً عن عالم الناس ومخالطتهم، ثم يزهد في الدنيا ومتاعها ويلتزم الفقر، فذلك أمر لا غرابة فيه .

وأن يكون الإنسان غنياً ثم يفتقر فيصبر على الفقر، فذلك أمر لا غرابة فيه أيضاً .

أما أن يكون غنياً، ثم يكون قادراً على تناول الدنيا كما يشاء، ثم يلتزم الفقر - والدنيا مطروحة أمامه وبين يديه - فذلك الأمر العجيب .

ومنهج يفعل ذلك . . . أمره عجيب . . . !!

عجيب في دنيا الناس . . .

أما حين يكون ذلك التزاماً بمنهج^(١)، وتأسياً بسنة . . . فحينئذ لن يكون عجيباً، بل يكون هو الأصل، والخروج عنه خروج عن الطريق القويم .

(١) الفقر الملتزم: مصطلح وضعه المؤلف لهذا الموضوع .

كان القوم يتحدثون في جانب من المسجد، عندما سمعوا صوت المنادي.. فأنصتوا...

«ألا لا تعجلوا فطام أبنائكم، فقد فرضنا لكل وليد في الإسلام».

- إنه منادي أمير المؤمنين...

- قال الآخر: الحمد لله، فقد عمّ الخير أرجاء ديار المسلمين، وبات الجميع في بحبوحة من العيش، ورغد لم يروه من قبل، وعدل وصل خيره إلى القاصي والداني...

- ولكن واحداً من الناس لم يصله هذا الخير، ولم يطرق رغد العيش بابه، فقد رأته بالأمس، وفي ثوبه رقاع كثيرة، بعضها من آدم...

وصمت الجميع، فقد أدركوا ما عناه صاحبهم...

- وقطع هذا الصمت أحدهم فقال: إنه قعد على رزق الخليفة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ... وقد مضت سنوات على ذلك، وقد كثر الخير، وارتفعت أسعار الأشياء... فلم يعد رزقه يفي بحاجاته...

- أضف إلى ذلك أن رزق أبي بكر لم يكن يفي بحاجته يومئذ...

- قال الزبير: لو قلنا له في زيادة نزيدها إياه في رزقه؟

- قال علي: وددنا أنه فعل ذلك. فانطلقوا بنا..
- قال عثمان: إنه عمر!! فهلموا فلنستشر ما عنده من وراء وراء. نأتي حفصة فنكلمها، ونستكتمها أسماء..
- قال طلحة: ذلك الرأي.



- لقيت حفصة أم المؤمنين عمر في ذلك. فعرفت الغضب في وجهه.
- قال: من هؤلاء؟
- قالت: لا سبيل إلى علمهم، حتى أعلم رأيك؟
- قال: لو علمت من هم لسؤت وجوههم. أنت بيني وبينهم: أنشدك بالله، ما أفضل ما اقتنى رسول الله في بيتك من الملبس؟
- قالت: ثوبين ممشقين^(١) كان يلبسهما للوفد ويخطب فيهما للجُمع.
- قال: فأبي الطعام ناله عندك أرفع؟
- قالت: خبزنا خبزة شعير فصبنا عليها وهي حارة أسفل عكة لنا، فجعلناها هشة دسمة، فأكل منها..

(١) أي: مصبوغين بمشق.

- قال: فأبي مبسط كان يبسط عندك كان أوطأ؟

- قالت: كساء لنا ثخين، كُتًا نربعه في الصيف فنجعله ثخيناً، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه، وتدثرنا بنصفه.

- قال: يا حفصة، فأبلغهم عني، أن رسول الله ﷺ قدر فوضع الفضول مواضعها، وتبلغ بالترجية^(١)، وإني قدرت، فوالله لأضعن الفضول مواضعها، لأتبلغن بالترجية. وإنما مثلي ومثل صاحبتي كثلاثة سلكوا طريقاً، فمضى الأول، وقد تزود زاداً فبلغ، ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه، فأفضى إليه، ثم اتبعه الثالث، فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما، وكان معهما، وإن سلك غير طريقهما لم يُجَامِعُهُمَا^(٢).



تلك هي الكلمات التي لخص فيها ﷺ منهجه في عيشه.

إنه مسلك التزمه عن فقه في دين الله، كشفته بصيرته النافذة، ومهد السبيل له تلك الصحة والمعاشة للرسول الكريم ﷺ...

(١) الترجية: الاكتفاء.

(٢) الطبري ١٦٤/٤، و«منتخب كنز العمال» ٤٠٨/٤. هكذا عزاه في «حياة الصحابة» للكاندهلوي. الباب الثامن.

تعرف على هذا المسلك من خلال تطبيق عملي رآه
ببصره، ووعاه بقلبه... فالتزم السير على طريق «الأسوة
الحسنة» مبتغياً بذلك وجه الله تعالى...

فلقد رأى رسول الله ﷺ في بدء الهجرة - والمسلمون
في شدة وضنك - فكان ﷺ واحداً منهم... ثم رآه في
آخر حياته ﷺ على تلك الحالة، على الرغم من التحسن
المادي الكبير الذي طرأ على حياة المسلمين.

لقد فتحت خبير... وفتحت فذك بعدها، وكانت فيئاً
خالصاً له ﷺ... وها هو في العام الثامن يوزع غنائم
هوازن... وها هو في العام التاسع يجيز الوفود المتعددة،
ويمنحهم الصلوات العظيمة... ومع ذلك ظلّ الوضع في
آياته على ما هو عليه...

ونساء الرسول ﷺ هنّ من البشر، يرغبن بما يرغب به
كل الناس ويشتھين ما يشتهيہ كل الناس...

وليس هناك ما يشير إلى أن تعديلاً سيحصل في
حياتهن، وقد تحسنت من حولهن حياة الناس.. فكان لا بد
من المطالبة...

وكانت هذه المطالبة أمراً مؤلماً للرسول الكريم، فاعتزل
نساءه. وشاع الخبر: بأنه ﷺ طلق زوجته...

وتأثر المسلمون لهذا الحدث فهرعوا إلى المسجد...

وجاء أبو بكر فاستأذن فلم يؤذن له . . .

وجاء عمر فاستأذن فلم يؤذن له . . .

ثم أذن لهما بعد ذلك . . .

وسأل عمر رسول الله ﷺ فقال: أطلّقت يا رسول الله نساءك؟ فرفع رأسه إليه وقال: (لا)، فقال عمر: الله أكبر . . .

وبعد السؤال عن سبب ما حدث قال ﷺ: (. . . هن حولي يسألنني النفقة).

وقام أبو بكر إلى عائشة يريد أن يضربها، وقام عمر إلى حفصة، ولكن رسول الله نهاهما عن ذلك . . .
واستأنس عمر فطلب الإذن بالجلوس فأذن له . . .

ويصف لنا تلك الجلسة، فكان مما قاله:

جلست فرفعت رأسي في البيت، فوالله ما رأيت فيه شيئاً يرد البصر إلا أهباً ثلاثة . . .

ووصف لنا وضع الرسول ﷺ فكان مما قاله:

. . . وإنه لعلني حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من آدم حشوها ليف . . . فرأيت أثر الحصر في جنب النبي ﷺ فبكيت . . .

ورأى ﷺ دموع عمر، فقال: (ما يبكيك؟)

قال: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه،
وأنت رسول الله..!

فقال رسول الله ﷺ: (أما ترضى أن تكون لهما الدنيا
ولك الآخرة؟).



وأقسم رسول الله ﷺ أن لا يدخل على أزواجه شهراً
من شدة موجدته^(١) عليهن.

ونزل إثر ذلك قوله تعالى:

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لَّا رُؤْيَا لَهَا فِي سَاعَةٍ مُّذْ يَأْتِيَهَا مِنَ الْغَيْبِ مَا نَبَأَ
بِهَا مَلَكٌ مِّنْ سَمَوَاتٍ عَالِيَاتٍ وَأَسْرَعُكُمْ وَأَسْرَعُكُمْ سَرَّاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَلَئِنْ كُنْتُمْ
تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب].

قال عكرمة: وكان عنده يومئذ تسع نسوة: خمس من
قريش: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة،
رضي الله عنهن. وكانت عنده صفية بنت حيي النضيرية،
وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش
الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، رضي الله عنهن.

وبدأ ﷺ بعائشة، فقال: (يا عائشة، إنني ذاك لك

(١) أي: غضبه.

أمراً، فلا عليك أن لا تعجلي فيه حتى تستأمرني أبويك)،
ثم قرأ عليها الآية...

قالت عائشة: قد علم - والله - أن أبوي لم يكونا
ليأمراني بفراقه، قالت: فقلت: أوفي هذا أستاذم أبوي؟
فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة...

ثم فعل أزواج رسول الله ﷺ مثل ما فعلت عائشة.
ولقد آثرن جميعاً حسن الاختيار، فاخترن الله ورسوله
والدار الآخرة.



واستمرت حياة أزواجه ﷺ على ما كانت عليه،
ولكنهن اليوم يملأ نفوسهن الرضى، فقد فطمتهن الآية
الكريمة عن التطلع إلى الدنيا، وفتت أنظارهن إلى ما هو
أسمى وأرفع...

وتوفي عنهن رسول الله ﷺ... وظلن ملتزمات بهذا
المسلك الذي شرفهن الله به...

أتيت عائشة بمائة ألف، ففرقتها، وهي يومئذ صائمة،
فقال لها أم درة: أما استطعت فيما أنفقت أن تشتري
بدرهم لحماً تفترين عليه؟ فقالت: لو أدركتيني
لفعلت...

وقالت برزة بنت رافع: أرسل عمر إلى زينب بنت

جحش بالذي لها من العطاء، فقالت: غفر الله لعمر،
غيري من إخواني كان أقوى على قسم هذا مني، قالوا:
هذا كله لك، قالت: سبحان الله... ثم قالت: صبَّوه
واطرحوا عليه ثوباً، ثم قالت: أدخلني يدك، واقبضي منه
قبضة فاذهبي بها إلى بني فلان، وبني فلان، من أهل
رحمها وأيتامها، ففرقتة حتى بقيت منه بقية تحت الثوب،
فقالت لها برزة: غفر الله لك يا أم المؤمنين، والله لقد كان
لنا في هذا حق. قالت: فلكم ما تحت الثوب، فوجدنا
تحتة خمسة وثمانين درهماً.

وهكذا نسيت عائشة نفسها، ونسيت زينب برزة التي
قامت بالتوزيع لولا أن ذكرتها بنفسها.



عاش عمر حادثة التخيير بكل أبعادها... وأخذت
مكانها من قلبه وفكره، وضمت إليها حوادث أخرى من
تصرف الرسول ﷺ مع ابنته فاطمة...

قال علي لفاطمة ذات يوم: والله لقد سنوت^(١)، حتى
لقد اشتكيتُ صدري، قال: وجاء الله أبك بسني فاذهبي
فاستخدميه^(٢)، فقالت: وأنا - والله - قد طحنت حتى

(١) أي: استقيت.

(٢) أي: اطلبي منه خادماً.

مجلت^(١) يدي. فأتت النبي ﷺ فقال: (ما جاء بك أي بنية؟) قالت: جئت لأسلم عليك، واستحييت أن تسأله ورجعت. فقال: ما فعلت؟ قالت: استحييت أن أسأله. فأتيا جميعاً، فقال علي: يا رسول الله، والله لقد سنوت حتى اشتكيت صدري، وقالت فاطمة: قد طحنت حتى مَجَلت يداي، وقد جاءك الله بسبني وسَعَة، فأخدمنا، فقال رسول الله ﷺ: (والله لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تطوي بطونهم، لا أجد ما أنفق عليهم...). فرجعوا.

وجاء في «مسند أحمد»: أن رسول الله ﷺ دخل على فاطمة، فوجد في يدها سلسلة من ذهب - كان أهداها إليها علي - فقال: (يا فاطمة، بالعدل أن يقول الناس: فاطمة بنت محمد، وفي يدك سلسلة من نار) ثم عزمها^(٢) عزمًا شديدًا، ثم خرج ولم يقعد. فأمرت بالسلسلة فبيعت، فاشترت بثمنها عبداً فأعتقته، فلما سمع بذلك النبي ﷺ كبر وقال: (الحمد لله الذي نجى فاطمة من النار)^(٣).

وعن عقبه بن عامر أن رسول الله ﷺ كان يمنع أهله الحلية والحريز، ويقول: (إن كنتم تحبون حلية الجنة وحريزها، فلا تلبسوها في الدنيا)^(٤).

(١) أي: ثخن جلدها.

(٢) أي: عدلها ولامها.

(٣) «الفتح الرباني» ١٧/٢٦٠ الحديث (٩٠).

(٤) أخرجه النسائي وأحمد، «جامع الأصول» ٤/٧٢٩.

وهكذا لم يكن شظف العيش قاصراً على أبيات أزواجه عليه السلام، بل إنه تناول ابنته أيضاً. . وهؤلاء هم آل بيت النبوة.



وفكر عمر في كل هذه الحوادث، وغيرها كثير. . . فاستقر في وعيه أن تأكيده عليه السلام على هذا المسلك كان مقصوداً، ولم يكن ناتجاً عن أحوال اضطرارية ألجأت إليه، فما كان هناك ما يدعو إلى ذلك.

إن كل عمله عليه السلام كان سنة للناس من بعده، ما لم يكن أمراً خاصاً به عليه السلام، ولم يرد أن هذا المسلك في التزام الفقر كان أمراً خاصاً به. وقد جاء قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب] ليجعل منه عليه السلام أسوة، وهذه الأسوة في كل الميادين، وعلى المسلم أن يتأسى به في الميدان الذي يمارسه في حياته العملية.

كان عليه السلام الشاب المستقيم في سلوكه وأخلاقه، وكان الداعية إلى الله، الذي لقي أصنافاً من الأذى في سبيل ذلك، وكان الزوج الوفي، وكان الوالد الرؤوف، وكان المربي العظيم، وكان القاضي والحاكم. . . وكان القائد الفذ، وكان رئيس الدولة الساهر على مصالح الناس. . .

ولم يكن اجتماع هذه الأمور عنده من باب المصادفة، فكل شيء عند الله تعالى - الذي جعله أسوة - بمقدار، وما

ذاك إلا ليكون لكل مسلم جانب ما يتأسى به برسول الله ﷺ، فما من مسلم، أياً كان عمله، وأياً كان شأنه، إلا ويجد ما يخصه مما يتأسى به بهذا الرسول الكريم.

وقد رأى عمر في مسلكه ﷺ في التزام الفقر أمراً سنّه ﷺ لقائد الأمة، ولذا لم يطلب ﷺ من أصحابه أن يسلكوا هذا المسلك... ولقد تأكد لعمر هذا الفهم بنهيه ﷺ فاطمة عن لبس الذهب وهو الذي يقول في الحرير والذهب: (حرّم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتي، وأجلّ لإنائهم)^(١). وإذن فهو لم يرض لها ذلك باعتبارها بنت رسول الله قائد هذه الأمة.

وعندما طلب علي وفاطمة الخادم، إنما كانا يطلبانه من نصيب رسول الله ﷺ من الخمس، وليس من أموال المسلمين، ومع ذلك لم يلب طلبهما.

وعندما كانت قضية أمهات المؤمنين بشأن مطالبتهن بالنفقة، لم يأمره تعالى بالتوسيع عليهن، في الوقت الذي كان قادراً فيه على التوسيع من نصيبه من الفيء... وإنما أمرهن تعالى - إن كن يردن الله ورسوله والدار الآخرة - أن يلتزمن بمسلكه ﷺ.

(١) أخرجه الترمذي والنسائي، انظر «جامع الأصول» ١٠/٦٧٨ برقم (٨٣٢٧).

كل هذه كانت مؤشرات، فهمَ منها عمر أن التزام الفقه سنة في حق قائد الأمة الذي يتولى منصب الخلافة، وهو منصب واحد في الدولة.

وكما أن من واجب كل قاض أن يتأسى به ﷺ في عدله، ومن واجب كل زوج أن يتأسى به في حسن معاملته لأهله، ومن واجب كل فرد أن يتأسى به في طاعته لله ﷻ، ومن واجب كل مربّب أن يتأسى به في حسن تربيته... و... و... فمن واجب كل من تولى منصب الخلافة في الأمة أن يتأسى به في «التزام الفقر» وطرح الدنيا من حسابه.. وفظم نفسه وأهله عنها...

إن قيادة الأمة وتولي شؤونها عمل كبير، ومسؤوليته عند الله أكبر. وعلى من أنيط به هذا العمل أن يكون لديه من رصيد العقيدة والإيمان، ومن العفة والأمانة ما يتمكن به من مقاومة الإغراء، والسيطرة على أهواء النفس، واضعاً نصب عينيه في كل وقت موقفه للحساب بين يدي الله تعالى.. فهي منصب لمن أراد الآخرة وسعى لها سعيها.

هذا ما فهمه عمر بن الخطاب ﷺ من التزامه ﷺ بالفقر.



ولقد أكد في نفسه هذا الفهم سيرة أبي بكر ﷺ إبان خلافته...

كان أبو بكر في جاهليته وإسلامه رجلاً تاجراً، يسّر الله

له من التجارة المال الكثير، ولم يعيش عيشة الفقراء في حياته قط، إلا في وقت الأزمات التي كانت تعم المسلمين نتيجة لضغط الكفر.. ولقد كان بيت مال المسلمين المتحرك إلى جانب الرسول ﷺ...

وآلت إليه الخلافة.. فكيف كانت معيشته؟

ونترك الجواب لعائشة، فقد نقلت لنا في الحديث الذي قاله والدها في مرض موته ما يكشف لنا عن تلك المعيشة بأبلغ كلام...

قالت عائشة: قال أبو بكر: «أما إنا منذ ولينا أمر المسلمين، لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً، ولكننا قد أكلنا من جريش^(١) طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا. وليس عندنا من فيء المسلمين قليل ولا كثير، إلا هذا العبد الحبشي، وهذا البعير الناضح، وجرد^(٢) هذه القطيفة، فإذا مت فابعثي بهن إلى عمر، وابرئي منهن». ففعلت.

فلما جاء الرسول عمرَ بكى حتى جعلت دموعه تسيل في الأرض، وجعل يقول: «رحم الله أبا بكر لقد أتعب من

(١) الخشن، وجراشة الشيء ما سقط منه جريشاً إذا أخذ ما دق

منه.

(٢) انجرد الثوب: أي انسحق.

بعده، رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده، يا غلام
ارفعهن..»^(١).

تلك هي سيرة أبي بكر في معيشته، إبان خلافته،
الخشن من الطعام، والخشن من الثياب.. وليس من
خلاف في أنه ﷺ كان أكثر الصحابة فهماً عن رسول الله
واستمساكاً بهديه ﷺ.

ولم ينسَ عمر وصية أبي بكر، وقد عهد إليه بالخلافة
إذ قال:

«.. فإن أنت وليت عليهم أمرهم، فإن استطعت أن
تجف يدك عن دمائهم، وأن تضمّر بطنك من أموالهم، وأن
تجف لسانك من أعراضهم فافعل ولا قوة إلا بالله..»^(٢).



كانت تلك المشاهد من عمر لرسول الله وصاحبه
عوامل الفقه الدقيق في دين الله تعالى. وقد لخص هذا
الفقه بقوله السابق لحفصة:

(يا حفصة.. وإنما مثلي ومثل صاحبِي كثلثة سلكوا
طريقاً، فمضى الأول، وقد تزود زاداً فبلغ، ثم اتبعه الآخر
فسلك طريقه، فأفضى إليه، ثم اتبعه الثالث، فإن لزم

(١) «طبقات ابن سعد» ١٩٦/٣.

(٢) «كنز العمال» ٦٧٧/٥ حديث (١٤١٧٦).

طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما، وكان معهما، وإن سلك غير طريقهما لم يُجَامِعُهُمَا).

إذن: فطريق «التزام الفقر» وفطم النفس عن الدنيا هو بعض معالم الطريق التي ينبغي أن يسير عليها قائد الأمة، ليضمن لنفسه الآخرة.. ويضمن لأمة المسلمين دنياهم، ويساعدهم على ضمان آخرتهم.

عليه أن يفتقر ليؤمن للناس الغنى، وتلك ضريبة المسؤولية العظيمة.. أن يعيش الإنسان المؤمن من أجل غيره لا من أجل نفسه.



وهكذا كان عمر...

عن عكرمة بن خالد: أن حفصة وابن مطيع وعبدالله بن عمر كلّموا عمر بن الخطاب فقالوا: لو أكلت طعاماً طيباً كان أقوى لك على الحق، فقال: قد علمت أنه ليس منكم إلا ناصح، ولكنني تركت صاحبي - يعني: رسول الله وأبا بكر - على جادة، فإن تركت جادتهما لم أدركهما في المنزل^(١).

وقال ابن عمر: كان عمر يكتسي الحلة في الصيف، ولربما خرق الإزار حتى يرقعه، فما يبدل مكانه حتى يأتي

(١) «كنز العمال» ٥٥٦/١٢ (٣٥٧٥١).

الإبَّان^(١)، وما من عام يكثر فيه المال إلا كسوته فيما أرى أدنى من العام الماضي. فكلمته في ذلك حفصة فقال: إنما أكتسي من مال المسلمين وهذا يبلغني^(٢).

وعن الزهري، أن مالك بن أوس حدّثه. قال: أرسل إليّ عمر بن الخطاب، فجئته حين تعالي النهار، قال: فوجدته في بيته جالساً على سرير، مفضياً^(٣) إلى رماله^(٤)، متكئاً على وسادة من آدم..^(٥).

إنها الصورة نفسها التي أبكت عمر يوم رأى رسول الله ﷺ وقد أثر الحصر في جنبه، تتكرر واقعاً عملياً، لا صنعة فيه.. إنه الطريق نفسه، والجدادة نفسها..

وفي هذا الإطار كانت سياسته في عماله، وتوجيهه لهم، ونذكر رسالته إلى أبي موسى الأشعري كنموذج لهذه السياسة. فقد جاء فيها:

«.. فإنما أنت رجل منهم، غير أن الله جعلك أثقلهم

(١) أي: موعد العطاء.

(٢) «كنز العمال» ٥٦٢/١٢ (٣٥٧٨١) نقلاً عن ابن سعد.

(٣) يعني: ليس بينه وبين رماله شيء. وإنما قال هذا لأن العادة

أن يكون فوق الرمال فراش أو غيره.

(٤) رماله: هو ما ينسج من سعف النخل ونحوه ليضطجع عليه.

(٥) رواه مسلم برقم (١٧٥٧).

حملاً، وقد بلغني أنه نشأ لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها، فإياك يا عبدالله أن تكون بمنزلة البهيمة مرّت بواد خصب، فلم يكن لها هم إلا التسمّن، وإنما حتفها في السمن..»^(١).

وقد لخص لنا عثمان بن عفان رضي الله عنه أسلوب الصاحبين في عيشهما بكلمات قليلة، كما روى ذلك عنه المسور فقال: سمعت عثمان يقول: يا أيها الناس، إن أبا بكر وعمر كانا يتأولان في هذا المال ظلف^(٢) أنفسهما، وذوي أرحامهما..^(٣).

ولم يغب عن ذهن عمر، أنه في كثير من الأحيان ما يؤتى الإنسان من قبيل أهله وذوي رحمه، حيث تطغى العاطفة على العقل، وقد قطع عمر طمع كل طامع في سلوك هذا السبيل، وترك الحديث لابنه عبدالله يحدثنا عن ذلك.

قال: كان عمر إذا أراد أن ينهى الناس عن شيء تقدم إلى أهله فقال: «لا أعلمن أحداً وقع في شيء مما نهيت

(١) «كنز العمال» ١٤٩/٣، كما في «حياة الصحابة» للكاتب د. هادي حيدر، ص ١١٣/٢.

(٢) ظلف العيش: بؤسه وشدته وخشونته.

(٣) «كنز العمال» ٦٢٧/٥ الحديث (١٤١٠٦) من رواية ابن

عنه إلا ضاعفت له العقوبة»^(١).

ولئن قال عمر في حق أبي بكر - بعد وفاته - «لقد أتعب من بعده» فإن علياً خاطب بها عمر بن الخطاب في حياته فقال: «قد أتعبت الخلفاء من بعدك»^(٢).

- ٢ -

وجاء عثمان بن عفان رضي الله عنه . . .

فسلك في خاصة نفسه المسلك ذاته . . .

قال عبدالملك بن شداد: رأيت عثمان بن عفان يوم الجمعة على المنبر، وعليه إزار عدني غليظ ثمنه أربعة دراهم . . .^(٣).

وعن شرحبيل بن مسلم: أن عثمان كان يطعم الناس طعام الإمارة، ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت . . .^(٤).

وعثمان من هو في غناه وتجارته قبل أن تؤول إليه الخلافة .

(١) «طبقات ابن سعد» ٢٨٩/٣.

(٢) «البداية والنهاية» ١٣٦/٧.

(٣) «حلية الأولياء» للحافظ الأصبهاني ٦٠/١.

(٤) المصدر السابق ٦٠/١.

وآلت الخلافة إلى علي عليه السلام . .

فكانت سيرته مثل سيرة من سبقه .

عن عبدالله بن رزين قال: دخلت على علي بن أبي طالب - قال حسن: يوم الأضحى - فقرب إلينا خزيرة^(١)، فقلنا: أصلحك الله لو أطعمتنا من هذا البط - يعني: الأوز - فإن الله قد أكثر الخير..^(٢)!!

وقال أبو عبيد: حدثنا عباد بن العوام عن مروان بن عتيرة عن أبيه قال: دخلت على علي بن أبي طالب بالخورنق، وعليه قطيفة وهو يرعد من البرد، فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك نصيباً في هذا المال، وأنت ترعد من البرد؟! فقال: إني - والله - لا أزرأ من مالكم شيئاً. وهذه القطيفة هي التي خرجتُ بها من بيتي - أو قال: المدينة -^(٣) .

وعن ابن عباس قال: اشتري علي قميصاً بثلاثة دراهم وهو خليفة^(٤) .



(١) الخزيرة: - كما في «القاموس» - شبه عصيدة بلحم، وبلا لحم عصيدة، أو مرققة من بلالة النخالة. اهـ. والمقصود هنا: طعام متواضع . .

(٢) «البداية والنهاية» لابن كثير ٣/٨ .

(٣) المصدر السابق ٣/٨ .

(٤) المصدر السابق ٣/٨ .

وإذا كان عمر رضي الله عنه قد علل لنا سلوكه في التزام الفقر بالتأسي بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، فإن علي بن أبي طالب يلفت نظرنا إلى جانب من الحكمة في هذا المسلك..

«فقد التزم عاصم بن زياد البُعد عن الدنيا والزهد فيها، مما أحزن أهله وولده. فعاتبه علي في ذلك...»

فقال عاصم: فعلام اقتصرت أنت يا أمير المؤمنين علي بس الخشن، وأكل الجشب «الرديء»؟

قال: إن الله افترض علي أئمة العدل أن يقدرُوا أنفسهم بالعوام لئلا يشنع علي الفقير فقره..»^(١).

كم هو عزاء جميل للفقير أن يعيش في مستوى رئيس الدولة طعاماً ولباساً.. وكم هو عظيم أن يشارك رئيس الدولة الفقير فقره طواعية واختياراً، وعندئذ لن يكون المال مبجلاً، ولن يكون الأغنياء طبقة متميزة تتعالى علي الناس بجاهها ونفوذها..

إنها المواساة العملية التي تخفف عن الفقير آلام الفقر، وتبعد عن نفسه الشعور بالهوان، مما يدفعه إلى الجد والعمل وهو مرتاح النفس، قوي العزم.

وبهذا يحقق الإسلام الأمن الاجتماعي. فلا يقف فقر

(١) عن كتاب «مع الله» للأستاذ محمد الغزالي ص ٤٥٥ تحت عنوان «قل من حرم زينة الله».

الفقير عثرة في طريقه، يحول بينه وبين ما يريد، فالأبواب مفتوحة للجميع في كل المجالات يشرف على تنظيمها خليفة؛ خاف الله تعالى وراقبه، وفقدت الدنيا رصيدها في نفسه، فانعدمت شهواته إليها، وبات حراً طليقاً من أسرها. . ولهذا فلن تكون نظرتَه للناس من خلال انتفاخ جيوبهم.

هذا الفقه في التزام الفقر وَعَتَه الخلافة الراشدة، فطبقتَه تأسياً واتباعاً، وحصدت نتائجه أمة الإسلام عدالة وازدهاراً، وبات المَعْلَم الأول من معالم استقامة المسؤول عن تدبير شؤون الأمة، وسمه على الرشد لمن ولي هذا المنصب.

وما نعتقد أن ديناً غير الإسلام يستطيع أن يحقق ذلك.

- ٤ -

وقد يظن بعضهم أن الارتقاء إلى هذه القمة السامقة خاص بتلاميذ محمد ﷺ، أولئك الذين تربؤا على يديه، وهم الذين تتابعوا على منصب الخلافة الراشدة بعده. . وأنه من الصعب تحقيق هذا السمو في وقت آخر، وفي أشخاص أناس آخرين!؟

وقد فاتهم أن الرسالة الخالدة إنما جاءت لتقرر منهجاً دائماً، لا يختص بجيل من الأجيال، وأن قدرته على العطاء مستمرة، كلما توفرت له الشروط المطلوبة.

ومن هذه الشروط، ما نحن بصدد الحديث عنه ألا وهو «التزام الفقر» من قبل رئيس الأمة وأميرها، الأمر الذي التزم به الخلفاء الراشدون.

هذا وقد سجل التاريخ عطاء المنهج المرة بعد المرة..

إن التاريخ كان على موعد في نهاية القرن الأول الهجري مع الخليفة الراشد الخامس، عمر بن عبدالعزيز.. فما هي الخطوة الأولى التي وضعتها على الطريق الصحيح؟ إنها الخروج من الأعطيات التي منحت له من الخلفاء قبله.

قال إسماعيل بن أبي الحكم: سمعت منادي عمر بن عبدالعزيز ينادي: الصلاة جامعة، قال: فجئت المسجد فإذا عمر على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أما بعد: فإن هؤلاء أعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا أن نأخذها، وما كان ينبغي لهم أن يعطوها، وإنني قد رأيت ذلك ليس علي فيه دون الله محاسب، وإنني قد بدأت بنفسي وأهل بيتي. إقرأ يا مزاحم...

فجعل مزاحم يقرأ كتاباً كتاباً، ثم يأخذه عمر ويديه الجلم^(١) فيقطعه، حتى نودي بالظهر^(٢).

ثم دخل على زوجته فاطمة بنت عبدالمك فخيرها بين

(١) الجلم: المقصص.

(٢) «حلية الأولياء» للحافظ الأصبهاني ٣٥٥/٥.

أن تقيم معه على أسلوب من الحياة خشن، أو تلحق بأهلها، فأثرت البقاء معه..^(١) ومن أجل هذا البقاء تنازلت عن جواهرها وحليها التي أهداها لها أبوها، والتي لم يُرَ مثلها.. لتستقر في بيت مال المسلمين..^(٢).

وسارت حياة عمر المعاشية على الأسلوب الذي عهدناه من الخلفاء الراشدين.

صلى يوماً الجمعة ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه. فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعطاك، فلو لبست، فنكس ملياً، ثم رفع رأسه فقال: أفضل القصد عند الجدة، وأفضل العفو عند المقدر^(٣).

وعن نعيم بن سلامة قال: دخلت على عمر بن عبدالعزيز فوجدته يأكل توماً مسلوقاً بزيت وملح^(٤).

وكان أكثر طعامه العدس.

وعن مسلمة بن عبد الملك، قال: دخلت على عمر بن

(١) «البداية والنهاية» ١٩٨/٩، و«سيرة عمر بن عبدالعزيز» لسيد الأهل ص ١٠١، نقلاً عن «سيرة ابن عبدالحكم» ص ٦٠.

(٢) «حلية الأولياء» ٢٨٣/٥.

(٣) المصدر السابق ٢٦١/٥.

(٤) المصدر السابق ٣١٥/٥.

عبدالعزیز أعوده في مرضه، فإذا عليه قميص وسخ، فقلت لفاطمة بنت عبدالمك: يا فاطمة، اغسلي قميص أمير المؤمنين، قالت: نفعل إن شاء الله، ثم عدت فإذا القميص على حاله، فقلت: يا فاطمة، ألم أمرم أن تغسلوا قميص أمير المؤمنين، فإن الناس يعودونه؟ قالت: والله ما له قميص غيره^(١).

ومع التزامه بالفقر في ذات نفسه وفي أهل بيته، فإنه كان يوسع على عماله في النفقة. وكان يتأول: أنهم إذا كانوا في كفاية تفرغوا لأشغال المسلمين. . فقالوا له يوماً: لو أنفقت على عيالك كما تنفق على عمالك؟ فقال: لا أمنعهم حقاً لهم، ولا أعطيهم حق غيرهم^(٢).
إنه فقه الإسلام. .

وبهذا يستطيع المسؤول في الأمة أن يفطم كل ذوي الأطماع من قرابته ومن غيرهم، أن تمتد أيديهم إلى ما ليس لهم به حق. . وعندها تستقيم الأمور ويقوم العدل في الناس.

- ٥ -

ويستمر العطاء. . وحيثما وجدت مراكز الإشعاع

(١) «حلية الأولياء» ٢٥٨/٥.

(٢) «البداية والنهاية» ٢٠٢/٩.

الإسلامي.. فثمة التزام للفقر يؤثر في قوة ذلك الإشعاع..

ونطالع في القرن السادس الهجري سيرة نور الدين محمود زنكي.. فنجد:

كان مقتصداً في الإنفاق على نفسه وعياله في المطعم والملبس، حتى قيل إنه كان أدنى الفقراء في زمانه أعلى نفقة منه من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا^(١).

وكان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا في الذي يخصه من ملك كان قد اشتراه من سهمه من الغنيمة. ولقد شكت إليه زوجته من الضائقة، فأعطاهها ثلاثة دكاكين في حمص كانت له، يحصل له منها في السنة نحو العشرين ديناراً، فلما استقلتها قال: ليس لي إلا هذا، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين، لا أخونهم ولا أخوض نار جهنم لأجلك^(٢)..

وفي أواخر القرن السادس أيضاً نقرأ سيرة صلاح الدين..

وكان متقللاً في ملبسه ومأكله ومركبه.. ولا سيما بعد أن أنعم الله عليه بالملك^(٣).

(١) «البداية والنهاية» ٢٧٨/١٢.

(٢) «الكامل» لابن الأثير ١٢٥/٩.

(٣) «البداية والنهاية» ٥/١٣.

وبنى له أتباعه مرة منزلاً أنيقاً في دمشق، فلم يكثرث به ولم ينظر إليه طويلاً، بل قال: ما كنا لنجلس في هذا المكان إلى الأبد، فهذا المنزل لا يصلح لمن يطلب الموت. وما نحن هنا إلا لتقوم بخدمة الله سبحانه^(١).

وحين توفي، لم يترك في خزانته من الذهب سوى دينار واحد، ولم يترك داراً ولا عقاراً، ولا مزرعة ولا بستاناً، ولا شيئاً من أنواع الأموال^(٢).



حارب الإسلام الفقر بكل الوسائل، وعلنى جميع الأصعدة، وما من دين أو مذهب فعل ما يفعله الإسلام في هذا الميدان.

وما «التزام الفقر» في شخصية الخليفة إلا اللقاح المضاد لجرثوم الفقر في جسم الأمة وكيانها. وقد أثبت هذا اللقاح فعاليتها مع اختلاف الزمان والمكان.. كما رأينا..

هكذا فهم السلف.. فهل من سائر على الأثر؟!



(١) «صلاح الدين الأيوبي» لعبدالله علوان، ط٣، ص١٧٨.

(٢) «البداية والنهاية» ٤/١٣.

أولويات

ان الله لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة

الصديق رضي الله عنه

دستور الخلافة

هذا الدستور:

لم يضعه حمورابي .

ولم يجمعه جستنيان .

كما لم يضعه أفلاطون لجمهوريةه^(١) .

ولم ينتخب مجلس تشريعي لصياغته .

وإنما وضعه ثاني الاثنين .

وضعه الرجل الذي صاحب الرسول طول حياته، فعاش
نزول الوحي ساعة فساعة، إلى أن انتقل صاحب الرسالة
إلى الرفيق الأعلى، وآلت إليه الخلافة .

(١) حمورابي (٢١٠٠ق.م) ملك بابل، اشتهر بوضع مجموعة
قوانين تُعد أقدم ما وصل في صورة كاملة .
جستنيان (٥٦٥م) إمبراطور بيزنطي، جمع الشرائع الرومانية
ودوّنها .

أفلاطون (٢٤٧ق.م) فيلسوف يوناني .

كان هذا الدستور خلاصة فقه طويل . . استفاده من الصحبة الكريمة . . ثم أضاف إليه خبرته في ممارسته لقيادة الأمة في أصعب أوقاتها . . الوقت الذي فارق فيه الرسول ﷺ أصحابه . . وارتدّ من ارتدّ عن الإسلام يومئذ .

إنه دستور، لم يكن له شكل الدساتير، فليس له مقدمات، ولا لوائح تفسيرية . . كما لم يكن مقسماً إلى أبواب ومواد .

إنه الوصية التي وضعها الخليفة الأول - وهو يودع الدنيا - في أذن الخليفة من بعده، يبين له فيها معالم الطريق، ويعطيه خلاصة تجربته . . والدين النصيحة .

إنها الكلمات القليلة التي أتيح له أن يقولها في لحظات حياته الأخيرة، على الرغم مما في هذه اللحظات من رهبة وجلال .

فلنستمع إلى تلك الكلمات، مقدّرين جلال الموقف، ومكانة القائل والمتلقي . .

قال مجاهد وغيره:

لما حضر أبا بكر الموت، دعا عمر، فقال له:

«اتقِ الله يا عمر .

واعلم أن لله عملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وعملاً بالليل لا يقبله بالنهار .

وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدّى الفريضة .

وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة

باتباعهم الحق في دار الدنيا وثقله عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الحق غداً أن يكون ثقيلاً.

وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفاً.

وإن الله تعالى ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم، وتجاوز عن سيئه، فإذا ذكرتهم قلت: إني لأخاف أن لا ألحق بهم.

وإن الله تعالى ذكر أهل النار، فذكرهم بأسوأ أعمالهم، وردّ عليهم أحسنه، فإذا ذكرتهم قلت: إني لأخاف أن أكون مع هؤلاء.

وذكر آية الرحمة وآية العذاب.

فيكون العبد راغباً راهباً، ولا يتمنى على الله غير الحق، ولا يقنط من رحمته، ولا يلقي بيديه إلى الهلكة.

فإن أنت حفظت وصيتي، فلا يك غائب أحب إليك من الموت، وهو آتيك.

وإن أنت ضيعت وصيتي، فلا يك غائب أبغض إليك من الموت، ولست بمعجزه»^(١).

(١) «كنز العمال» ٥٣٣/١٢، و«حلية الأولياء» ٣٦/١.

إنها كلمات.. ولكنها خلاصة حياة..

وقد كان لها في حياة عمر الأثر البالغ..

فما أحرانا أن نقف في ظلالها وقفة يسيرة نستشق فيها
عبير تلك الأيام، ولكن أتى لهذا العبير أن يصل إلينا وسط
هذا الجو المشحون بكل أنواع الدخان، والملوث بكل
أنواع الجراثيم.

نعم إننا بحاجة إلى هذا العبير، فهو الهواء الصافي
الذي يساعدنا على الاستمرار في الحياة رغم ما فيها من
مكدرات.

كانت الفقرة الأولى: الأمر بتقوى الله.

وهي تعني: بيان نظام الرقابة. فالرقابة في الحياة
الإسلامية - سواء في ذلك الأفراد والقادة - لله تعالى، فهو
المطلع على عمل الإنسان في ظاهر العمل وفي بواعثه.
وإذا أخذت هذه الرقابة مكانها في حياة الخليفة استقامت
الأمر وحسن الحال.

وقد جرّب الناس كل أنواع الرقابات الأخرى ففشلت،
وقد سجّل هذا الفشل الواقع المنظور، والماضي المسجل
في صفحات التاريخ.

وكانت الفقرة الثانية نصيحة بضبط الوقت، وتنظيم
الأعمال..

فإن لله عملاً بالنهار لا يقبله بالليل..

إن أداء كل عمل في وقته، يساعد على القيام بالواجب، كما يساعد على عدم تكدُّس الأعمال وتراكمها.. .

ووقت الخليفة ملك للناس، لا مجال فيه للهو ولا للعبث، فالأعمال أكثر من الأوقات، وبخاصة لمن اختاره الله لشغل هذا المنصب.. . وعندما يجد من شُغِلَ بهذا العمل شيئاً من الفراغ، فذلك يعني أن هذا الإنسان لم يعِ معالم مسؤوليته.

قال معاوية بن خديج:

بعثني عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب، أبشره بفتح الإسكندرية، فقدمت المدينة فوصلتها في الظهرية، فأنخت راحلتي بباب المسجد، ثم دخلت المسجد، فبينا أنا قاعد فيه، إذ خرجت جارية من منزل عمر، فقالت: مَنْ أنت؟ قلت: أنا معاوية بن خديج رسول عمرو بن العاص.. . فانصرفت عني، ثم أقبلت تشتد، فقالت: قم فأجب أمير المؤمنين.

وتبعتها.. . فقال: ما عندك؟

قلت: خير يا أمير المؤمنين، فتح الله الإسكندرية.. .

فقال عمر: ماذا قلت يا معاوية حين أتيت المسجد؟

قال: قلت أمير المؤمنين قائل.

قال عمر: بئسما ظننت، لئن نمت النهار لأضيعن

الرعية، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي، فكيف بالنوم مع هذين يا معاوية^(١)؟!

أرأيت يا أخي، كيف أن عمر لم يعد يجد الوقت الذي ينام فيه؟!

وكانت الفقرة الثالثة: قانوناً في بيان سلم الأولويات.

«إن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة».

فقد يأتي وقت تزدهم فيه الأعمال وتكون أكثر من أن يتسع لها وقت الخليفة، وهنا لا بد من اللجوء إلى سلم الأولويات في ترتيب الأعمال. فالفروض مقدّمة على النوافل. . والفروض لها ترتيب فيما بينها. . فما كان فرض عين فهو مقدّم على ما كان فرض كفاية. .

وفقه هذا الجانب أمر في غاية من الأهمية، إذ هو يدخل شتى ميادين الحياة: الحياة الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية. .

فإذا رأيت الأمة وقد أحدق بها الخطر من كل جانب، ومع ذلك فلا يزال اللعب يأخذ حيزاً من وجودها وإعلامها. . فاعلم أن الخلل قد أصاب هذا الجانب من وجودها، وهو خلل يؤدي بها إلى الهاوية.

وكانت الفقرة الرابعة في بيان خفة الموازين وثقلها يوم القيامة.

(١) «كنز العمال» ٥٧٩/١٢ الحديث (٣٥٨٠٤).

وإذا كانت هذه الموازين في الحياة الآخرة، فإن ما يوضع فيها إنما يوضع في الحياة الدنيا .
ولا تثقل هذه الموازين إلا بالحق وأتباعه .
والحق ثقيل، فهو بحاجة إلى قوة تحمله وتحمل الناس عليه . .

ولقد يزيد من ثقل الحق على النفوس خفة الباطل في الجانب الآخر .

وقد وعى عمر هذه النصيحة وعرف كيف يأخذ الناس بها وهم راضون منقادون، ذلك أنه أتى الأمور من أبوابها، فكان يأخذ نفسه أولاً بما يريد تطبيقه والأمر به، ثم يأخذ أهله بذلك، ثم عامة الناس .

قال عبدالله بن عمر: كان عمر إذا أراد أن ينهى الناس عن شيء، تقدم إلى أهله فقال: لا أعلمن أحداً وقع في شيء مما نهيت عنه، إلا أضعفت عليه العقوبة^(١) .

وبهذه السياسة استقامت الأمور، وأخذ الحق مكانته في الأمة، وانحسر الباطل على الرغم من خفته على النفوس وميلها إليه .

وكانت الفقرة الخامسة بياناً للسلوك السوي للمسلم، قائداً كان أو فرداً، وهو أن يكون بين رغبة ورهبة، فلا يقنط من رحمة الله فيلقي بنفسه في التهلكة، ولا يتمنى

(١) «طبقات ابن سعد» ٢٨٩/٣ .

على الله الأمانى وهو لم يتخذ أسبابها.. إنه التوازن بين الأمرين.. فهو حسن الظن بالله، أمله كبير فيما عنده، وقد اتخذ من الأسباب لذلك ما استطاع، وهو في الوقت نفسه خائف ذنوبه.. لاجئ إلى الله في كل حين يطلب المغفرة والقبول.

وكانت الفقرة الأخيرة، ميزاناً يزن الإنسان به نفسه..

وهي الموقف من الموت..

فالذي استقام مع أوامر الله، وعاش في ظلها.. يكون مطمئن النفس، فلا يخيفه مجيء الموت فهو مقدم على رحمة الله.

وأما من انحرف عن الطريق.. فإن الموت أبغض شيء

إليه.

هذا الميزان الذي وضعه الصديق في نهاية وصيته، ميزان دقيق، يمكن استعماله في كل وقت إذا ما أراد الإنسان معرفة مكانه.. وهل هو على الطريق السوي..

فإن وجد نفسه تكره الموت فمعنى ذلك أن هناك في أعماله ما يخيفه، فليسارع إلى تصحيح المسار.. مستعيناً باللجوء إلى طلب العفو والمغفرة من غفار الذنوب سبحانه وتعالى.

ذلكم هو دستور الخلفاء الذي وضعه الخليفة الأول.. فليت الذين يتولون القيادة في بلدان المسلمين يجعلونه محل عنايتهم من حيث فهم أبعاده وتطبيق ما جاء فيه..

ثوب الكعبة

عن نوفل بن أبي الفرات قال: كتبت الحجة^(١) إلى عمر بن عبدالعزيز أن يأمر للبيت بكسوة، كما كان يفعل مَنْ كان قبله. فكتب إليهم:

«إني رأيت أن أجعل ذلك في أكباد جائعة، فإنهم أولى بذلك من البيت»^(٢).

والكعبة المشرفة التي يُطلب لها الثوب، هي البيت الذي بناه إبراهيم بمساعدة ابنه إسماعيل عليهما السلام، وهي قبلة المسلمين في صلاتهم، والطواف حولها عبادة وركن من أركان حجهم، وهي بيت الله الحرام.. وهي أحب أرض الله تعالى إلى الله.

وتقديسها ينبع من هذه المعاني، ومن هذا المنطلق في التقدير والاحترام كانت فكرة ستر الكعبة.. وكان ثوب الكعبة.

(١) هم: سدة الكعبة.

(٢) «حلية الأولياء» ٣٠٦/٥.

كان ذلك في الجاهلية قبل الإسلام، وأقرّ الرسول ﷺ ذلك.. حتى أمر بقتل بعض الكفار يوم الفتح ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة.

وأصبحت كسوة الكعبة أمراً مرتبطاً بالخلافة، يقوم عليه الخلفاء الواحد بعد الآخر.

وتأخر عمر بن عبدالعزيز عن إرسال هذا الثوب في أيامه حتى طولب به. فكان جوابه ما ذكرناه.

لم يكن تأخره تأخراً عن أداء شعيرة من شعائر هذا الدين، أو تهاوناً بأمر تعظيم البيت، معاذ الله، وإنما كان نظرة ثابتة في دين الله تعالى.

فأعمال الخير كلها مطلوبة، ولكنها تتفاوت في الدرجات، وتتفاوت تبعاً لذلك في التقديم والتأخير.. والفقيه هو الذي يحسن التقدير ويُنزل كل أمر منزلته.

ورأى عمر أن هناك فقراء بحاجة إلى ذلك المال - الذي يبذل في ثوب الكعبة - لسد حاجاتهم من الطعام الذي يدفع الجوع، والكسوة التي تدفع الحر والبرد.. وهناك الحاجة إلى ستر الكعبة الذي يعبر عن التعظيم لبيت الله الحرام.. وكان لا بد من تقديم أحد الأمرين على الآخر.

ورأى عمر أن جعل ذلك في الأكباد الجائعة أولى من ستر الكعبة بالثياب!! فالكعبة لا ينقص من قدرها ألا يكون

لها ثوب، ولا ينقص من قداستها أن يكون ثوبها ممزقاً..
وإنما يشرف الثوب بنسبته إليها أياً كانت صفته.. ويقدّس
الحجر عندما يكون في بنائها.. وما التقديس للثياب
والأحجار، وإنما للمعنى الذي قام بالثياب والأحجار
وصلتها بذلك البيت العظيم.

ولكن الفقير الذي لا يجد حاجته، مسؤوليته في عنق
الحاكم، يُسأل عنهم أمام الله تعالى، ومسؤوليته في عنق
أسرته وأقربائه، ومسؤوليته في عنق جيرانه..

ومن هذه المسؤولية كانت قولة عمر بن الخطاب
المشهورة: «لو تعثرت سخلة على شاطئ الفرات
لكان عمر مسؤولاً عنها..» وكان قوله ﷺ: (ما زال
جبريل يوصيني بالجار..) لهذا كانت حاجة الجائع
أولى.



ولعل الإمام أبا حامد الغزالي أخذ من هذه الحادثة
وأمثالها من فقه السلف ذلك الفصل الرائع في كتابه
«الإحياء» عندما قال:

«وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور، بل قد
يتعين في الإنسان فرضان: أحدهما يفوت، والآخر لا
يفوت، أو فضلان أحدهما يضيق وقته، والآخر يتسع وقته.
فإن لم يحفظ الترتيب كان مغروراً.

ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى، فإن المعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة، وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض:

كتقديم الفرائض كلها على النوافل.

وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفاية.

وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره.

وتقديم الأهم من فروض الأعيان على ما دونه.

وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت.

وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد، إذ سئل عليه السلام فقيل له: مَنْ أبر يا رسول الله؟ قال: (أمك)، قال: ثم مَنْ؟ قال: (أمك)، قال: ثم مَنْ؟ قال: (أمك)، قال: ثم مَنْ؟ قال: (أباك)، قال: ثم مَنْ؟ قال: (أدناك فأدناك)^(١) فينبغي أن يبدأ في الصلة بالأقرب، فإن استويا فبالأحوج، فإن استويا فبالأنتقى والأورع.

وكذلك من لا يفي ماله بنفقة الوالدين والحج، فربما يحج، وهو مغرور، بل ينبغي أن يقدم حقهما على الحج. وهذا من تقديم فرض أهم على فرض هو دونه.

(١) أخرجه الترمذي، والحاكم وصححه.

وكذلك إذا كان على العبد ميعاد، ودخل وقت الجمعة، فالجمعة تفوت، والاشتغال بالوفاء بالوعد معصية، وإن كان هو طاعة في نفسه.

وكذلك قد تصيب ثوبه نجاسة، فيغلب القول على أبيه وأهله بسبب ذلك، فالنجاسة محذورة، وإيذاؤهما محذور، والحذر من الإيذاء أهم من الحذر من النجاسة.

وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصر. ومن ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور. وهذا غرور في غاية الغموض، لأن المغرور فيه في طاعة، إلا أنه لا يفتن لصيرورة الطاعة معصية، حيث ترك بها طاعة واجبة هي أهم منها^(١).

أجل إن تقديم الأكباد الجائعة أولى!! فهل من واع لهذا الدرس؟!



(١) «إحياء علوم الدين» ٤٠٣/٣ - ٤٠٤.

أفضل من الحج

كان من أعلام الحديث والفقه والعربية، كما كان زاهداً شجاعاً عابداً، وكان تاجراً واسع التجارة كريماً..
وكان يحج عاماً ويغزو ويجاهد عاماً..

وانطلق في سفره إلى الحج يرافقه الجمع الكثير..
وفي إحدى محطات سفره في إحدى القرى.. وقد أوى الحجيج إلى الراحة، خرج عبدالله لقضاء حاجة من حاجاته فما راعه في طريقه إلا امرأة فتحت باب دارها وتلفتت يمنة ويساراً، فلما لم تجد أحداً خرجت إلى مزبلة قريبة منها، فوجدت طائراً ميتاً قد ألقي عليها، فأخذته ثم سترته بثوبها.. وأسرعت به إلى الدار.

كان مشهداً فظيماً.. ألا تعلم هذه المرأة أن أكل الميتة حرام؟ وهي تعيش في ديار المسلمين، وهو أمر من الأمور المعروفة من الدين بالضرورة.

هذا ما تداعى إلى ذهن الرجل وهو يرى هذا المشهد المحزن، ولم يترك الأفكار تتوارد على ذهنه، ولكنه قطعها بالاتجاه إلى ذلك الباب الذي خرجت منه المرأة.. فطرقة..

سمعت المرأة الطارق، ولكنها ترددت في السؤال عن الطارق، فبابهم لم يُطرق في يوم من الأيام، فليس هناك من يسأل عنهم أو يهتم بشأنهم، وتبادر لذهنها أن الطارق ربما كان واحداً من الناس رآها وهي تأخذ ذلك الطائر. . كل ذلك طرقت ذهنها في تلك اللحظات. . ثم اتجهت إلى الباب.

- من الطارق؟

- أنا عبد من عباد الله رأيتك تأخذين ذلك الطائر الميت.

- يا عبد الله! وما يهمك من شأننا، دعنا وما نحن فيه، فإني في شغل عن سؤالك.

- لا أستطيع أن أدعك وشأنك، إن كان ما رأيتك حقاً.

- نعم هو كما رأيت.

- أما تعلمين أن الميتة لا تحل لمسلم؟

- قالت: أعلم، ولكن نحن أهل بيت أحلّ الله لنا ذلك.

- وكيف؟

- قالت: أنا وأخي نعيش في هذا البيت، وليس لنا شيء. . . وليس لنا من قوت إلا ما يلقي على هذه المزبلة، وقد حلت لنا الميتة منذ أيام. .

ولم يتمالك عبدالله دموعه وهو يسمع هذه الكلمات. . ثم انصرف إلى وكيله ليقول له:

- كم معك من النفقة؟

- ألف دينار.

- عدّ منها عشرين ديناراً، وأعطني الباقي.

وأخذ الباقي واتجه إلى ذلك الباب وطرقه..

وخرجت الفتاة إلى خلف الباب تسأل الرجل: ما

شأنه؟

- قال: يا أمة الله، خذي هذه الدنانير فأنفقيها على

نفسك وأخيك، وقد حرّم الله عليك الآن ما كان أحله

لك.. وانصرف..

انصرف ودعاء المرأة له ما زال يصل إلى سمعه حتى

بعد عن المكان.

وأمر وكيله بتحويل وجه الرواحل في طريق العودة،

وقال له: إن عشرين ديناراً تكفينا للوصول إلى مرو. وهذا

أفضل من حجنا هذا العام.. ورجع.

إي والله! ذلكم هو الفقه، إن لقمة في بطن جائع

أفضل من حجة نفل.

وذلكم هو عبدالله بن المبارك، شيخ الإسلام، عالم

زمانه وأمير الأتقياء في وقته، كما يقول الذهبي..

رحمهما الله تعالى.

وهذا من فقه الأولويات.

وهكذا فهم السلف.

المطالب العالية

دخل المدينة مهاجراً إلى الله ورسوله، ونزل في الصُّفة دار ضيافة الإسلام.

والصُّفة مكان في المسجد النبوي لا يفصله عن حجرات النبي ﷺ إلا أمتار قليلة؛ ولذلك فالمقيمون فيها هم على صلة دائمة بالنبي الكريم، يراهم ويرونه صباحاً ومساءً.

وقد وجد في هذا القرب فرصة ليكون أقرب وأقرب من رسول الله ﷺ؛ فجعل من نفسه خادماً له، يلبي حاجاته، ويأتمر بأوامره.

وكذلك كان كل الذين خدموا رسول الله ﷺ، فهم يقومون بذلك تطوعاً من تلقاء أنفسهم، يتقربون بذلك إلى الله تعالى بهذا العمل الصالح.

والرسول الكريم ﷺ - على عادته - يحب أن يكرم كل من أسدى إليه معروفاً، فقال له: «يا ربيعة، سلني أعطك».

وربيعة هذا، هو ربيعة بن كعب الأسلمي، ولنترك له الكلام يحدثنا عن نفسه، فلغته أفصح، وبيانه أوضح، فهو صاحب القصة.

قال ربيعة رضي الله عنه:

كنت أخذمُ رسول الله ﷺ، وأقوم له في حوائجه نهاري أجمع، حتى يصلي رسول الله ﷺ العشاء الآخرة، فأجلس ببابه إذا دخل بيته، أقول: لعلها أن تحدث له حاجة، فما أزال أسمعُه يقول: «سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله وبحمده»، حتى أمل، فأرجع، أو تغلبنى عيني فأرقد.

قال ربيعة: فقال لي رسول الله ﷺ يوماً - لما يرى من خفتي له وخدمتي إياه -: «سَلْنِي يَا رُبَيْعَةَ أَعْطُكَ».

قال: فقلت: أنظر في أمري يا رسول الله، ثم أعلمك ذلك.

قال: ففكرت في نفسي، فعرفت أن الدنيا منقطعة وزائلة، وأن لي فيها رزقاً سيكفيني ويأتيني، قال: فقلت: أسأل رسول الله ﷺ لآخرتي، فإنه من الله بالمنزل الذي هو به.

قال: فجئتُه، فقال: «ما فعلت يا ربيعة؟».

قال: فقلت: نعم، يا رسول الله، أسألك أن تشفع لي إلى ربك، فيعتقني من النار.

فقال: «من أمرك بهذا يا ربعة!». .

فقلت: لا والله الذي بعثك بالحق، ما أمرني به أحد، ولكنك لما قلت لي: «سلني أعطك»، وكنت بالمنزل الذي أنت به، نظرتُ في أمري، وعرفتُ أن الدنيا منقطعة وزائلة، وأن لي فيها رزقاً سيأتيني، فقلت: أسأل رسول الله ﷺ لأخرتي.

قال: فصمت رسول الله ﷺ طويلاً، ثم قال لي: «إني فاعل، فأعني على نفسك بكثرة السجود»^(١).

إن هذه الواقعة التي دونها الإمام أحمد في «مسنده»، تضع بين أيدينا نموذجاً من تفكير الصحابة وفهمهم للأمور، وكيف أن سلم الأولويات كان واضحاً ووضوح الشمس في رابعة النهار.

وشرح لنا ربعة ﷺ كيف ناقش الأمور في نفسه، قبل أن يصل إلى القرار. . إنها فرصة أن يتاح له سؤال رسول الله ﷺ. . ورسول الله ﷺ له مكانته عند الله تعالى. . وهو مخير بين أمرين: إما سؤال يتعلق بالدنيا، وإما سؤال يتعلق بالآخرة. . والدنيا مقدّر فيها رزق الإنسان. . فليستغل هذه الفرصة بسؤال يتعلق بالآخرة، وبخاصة أن الرسول هو الذي سيتولى أمر هذا السؤال. .

(١) «المسند»، رقم الحديث (١٦٥٧٩) بحسب طبعة مؤسسة

الرسالة، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: حديث حسن.

وبهذه المحاكمة العقلية والإيمانية توصل ربعة إلى ما توصل إليه .

وبعد: فليست الواقعة قاصرة على الاستشهاد بها في ميدان الأولويات؛ بل فيها الكثير مما يستوقف القارئ، أكتفي بذكر النقاط التالية بشكل مختصر:

- إن العمل الخالص لله تعالى، لا ينتظر صاحبه أجراً من أحد. وكذلك كان عمل ربعة في خدمة النبي ﷺ، ولذلك لما سُئل من قبل النبي ﷺ لم يكن لديه جواب، ولو دار هذا بخلده وقتاً ما، لكان جوابه حاضراً.

- إن الأمور ذات الخطر، ينبغي التفكير فيها قبل الإقدام عليها، فالعجلة قد توقع في الخطأ، وهذا ما دفع ربعة إلى التريث في الجواب، وطلب إتاحة الفرصة له للتفكير في الأمر. وكذلك كل أمر يُقدم عليه الإنسان يحسن أن يتند به تبعاً لمكانة الموضوع وخطره.

- ويستوقفنا سؤال النبي ﷺ في قوله: «من أمرك بهذا يا ربعة؟» فكأنه ﷺ يريد أن يعرف: هل أشار أحد على ربعة بذلك، أم هو ما توصل إليه بنفسه؟ ولا شك بأنه ﷺ سُرَّ لجواب ربعة، ذلك أنه لم يمضِ طويل وقت على هجرته - والله أعلم - ومع ذلك فإنه يتمتع بذلك الفكر الحصيف، والمناقشة العقلية السليمة والفقهِ في دين الله .

- إن الأمور المتعلقة بالله تعالى، هي له وحده .

ولذلك صمت الرسول ﷺ طويلاً . . قبل أن يقول له: «إني فاعل» أي إنه ﷺ سيشفع له عند ربه، ولكنه وجهه إلى العمل . . وهو كثرة السجود.

إن اتخاذ الأسباب للوصول إلى غاية ما، أمر ضروري . . وإذا كان دعاء الرسول ﷺ وشفاعته سبب لتحقيق مطلب ربيعة . . فإنه ﷺ يوجهه إلى اتخاذ سبب آخر وهو كثرة السجود . . وهذا يذكرنا بقوله ﷺ لصاحب الناقة الذي أراد أن يتركها دون عقاب: «اعقلها وتوكل» . . وهكذا سنته ﷺ في صغير الأمور وكبيرها . . فإنه يوم بدر صفَّ صحابته استعداداً للقتال، ثم قال يناشد ربه سبحانه وتعالى ويطلب منه النصر . .



ونتساءل: هل كان تفكير ربيعة نمطاً خاصاً به، أم هو الخط العام الذي وعاه الصحابة جميعاً، لأنه أولية من أوليات الفقه في هذا الدين؟

ونترك الإجابة لأنس بن مالك رضي الله عنه:

قال: أتت الأنصار النبي ﷺ بجماعتهم، فقالوا: إلى متى نزرع من هذه الآبار؟ فلو أتينا رسول الله ﷺ، فدعا الله لنا، ففجر لنا من هذه الجبال عيوناً.

فجاؤوا بجماعتهم إلى النبي ﷺ، فلما رآهم قال: «مرحباً وأهلاً، لقد جاء بكم إلينا حاجة».

قالوا: إي والله يا رسول الله .

قال: «فإنكم لن تسألوني اليوم شيئاً إلا أوتيته، ولا أسأل الله شيئاً إلا أعطانيه» .

وهكذا أصبحت رغبتهم محققة، وما جاؤوا إليه أمراً واقعاً، وفقاً لما سمعوا من رسول الله ﷺ، فماذا قالوا له، وقد أصبح الأمر بين أيديهم؟

قال أنس: فأقبل بعضهم على بعض فقالوا: الدنيا تريدون؟ اطلبوا الآخرة! فقالوا بجماعتهم: يا رسول الله، ادع الله لنا أن يغفر لنا .

فقال: «اللهم اغفر للأنصار، ولأبناء الأنصار، ولأبناء أبناء الأنصار» .

قالوا: يا رسول الله، وأولادنا من غيرنا .

قال: «وأولاد الأنصار» .

قالوا: يا رسول الله، وموالينا .

قال: «وموالي الأنصار»^(١) .

جاء الأنصار لغرض، فلما رأوا الفرصة سانحة لتحقيق ما هو أكبر منه، اتجهت همتهم إلى الأفضل وإلى الباقي،

(١) رواه الإمام أحمد برقم (١٢٤١٤، ١٣٢٦٨، ١٣٢٦٨م)

وقال الشيخ شعيب: حديث صحيح .

وآثروا ما يصاحبهم إلى الحياة الباقية على ما يخلفونه
ورائهم في الحياة الفانية.

وهكذا كانت سيرة هذا الجيل مشعلاً يضيء الطريق
للسائرين، ومن خلال ذلك نفهم قوله ﷺ: «خير القرون
قرني»^(١).



(١) متفق عليه.

الخاتمة

جاء صعصعة بن معاوية إلى النبي ﷺ فقرأ عليه:
 ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ
 مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة] فقال: حسبي، لا
 أبالي أن لا أسمع غيرها^(١).

وهاتان الآيتان هما ختام سورة «الزلزلة» التي ورد في
 فضلها أنها تعدل نصف القرآن^(٢).

ونحن كثيراً ما نقرأ هذه السورة، ولكن الكثير منا لا
 يصل إلى الفهم الذي فهمه صعصعة رضي الله عنه.

فالذي يتبادر إلى ذهن بعضنا من معناها: أنها قضية
 تتعلق بالحساب يوم القيامة، وأن هذا الحساب من الدقة
 بحيث يكون للذرة - وهي أصغر شيء متصور - وزن.

(١) رواه أحمد في «مسنده» برقم (٢٠٥٩٣) وقال الشيخ شعيب
 الأرنؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات.

(٢) ورد ذلك في حديث أنس رقم (٢٨٩٣) وحديث ابن عباس
 رقم (٢٨٩٤) وكلاهما عند الترمذي.

وهذا معنى صحيح، وهو فهم صحيح.. ولكن صعصعة رأى فيها معنى آخر يضاف إلى ذلك، وهي أنها «منهج حياة»، ولذلك لا يبالي ألا يسمع غيرها.

فالإنسان بفطرته يعرف الخير والشر، وإذا كان الحساب يوم القيامة على الذرة؛ فليحاسب نفسه في الدنيا على ذلك. فليجتنب الشر حيث كان، وليأت الخير حيث كان. إنها «كتشريع» كافية لضبط شؤون المجتمع واستقامته إذا عمل الناس بها.

والحياة كلها بين خير يسعى إليه الإنسان، وبين شر يتقيه، فإذا طبّق على نفسه، وعامل الناس بموجبه، فرغب في إيصال الخير إليهم، وكف الأذى عنهم مهما كان صغيراً، عاش الجميع بخير وسلام.

ولئن قال الإمام الشافعي بشأن سورة «العصر»: لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم، فإن صعصعة يقول: لو عمل الناس بهذه الآية لوسعتهم.

ولما لهذا المعنى من أثر في حياة المسلم، أرادت أم المؤمنين عائشة أن توضحه للناس بمثال عملي.

قال الإمام مالك: بلغني أن مسكيناً استطعم عائشة أم المؤمنين، وبين يديها عنب، فقالت لإنسان: خذ حبة فأعطه إياها، فجعل ينظر إليها ويعجب، فقالت عائشة:

أتعجب؟ كم ترى في هذه الحبة من مثقال ذرة^(١)؟

وعائشة، لا يستطيع أحد أن يتهم كرمها وجودها وسخاها، فهي من هي في هذا المضمار، ولكنها أحبت أن تجلي هذا المعنى وتوضحه للناس، ليقيسوا على ذلك ذرات الخير وذرات الشر.

وقد قال ﷺ في أكثر من حديث: «اتقوا النار ولو بشق تمرّة» وحبّة العنب التي تحدثت عنها عائشة تعدل شق تمرّة.

فالحري بنا أن يكون «حديث الذرة» في خاطرنا عندما نكون أمام الشر حتى نجتنبه، وعندما نكون أمام الخير حتى نقوم به ولا نستقلّه.

وَبَعْدُ:

فهذا ما يسره الله من جمع هذه «الفهوم» أحببت أن يكون «حديث الذرة» ختاماً لها، واللّه المرجو أن يجعلني والمسلمين ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



(١) «الموطأ»، رقم (١٨٧٩).

المحتو

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة الطبعة الثانية
٧	مقدمة الطبعة الأولى
٩	ليتني مكانه
١١	صاحب الحفرة
١٣	معكما
١٦	بمثل عمله
١٩	أمين الأمة
٢٢	ويحبه الله
٢٥	واحدة من ثلاث
٢٧	احترام وتقدير
٢٩	هكذا أمرنا
٣٢	وأعق سيدنا
٣٤	أيها الأمير
٣٦	بنت الحب
٣٩	مشاركة أكثر من وجدانية

٤١	حبسهم العذر
٤٥	إنها . . لفقيرة
٤٨	أيهما الخليفة؟! ..
٥١	يا لبيك . . ثم يا لبيك
٥٥	بعضهم لبعض نصحة
٥٧	مَن لي يومَ القيامة؟ ..
٥٩	لعل الله يرزقنا جملاً
٦١	عفوت مأجوراً ..
٦٣	أنا المسؤول عنهم
٦٧	ميادين التنافس ..
٦٩	الفقراء والأغنياء
٧٣	النساء والرجال
٧٨	سبقناكم ..
٨٢	اليوم أسبق أبا بكر
٨٥	الطاقات المتواضعة ..
٨٧	سيف بغير ترس
٩١	غير سهمك أردنا
٩٥	تصحيح المفاهيم ..
٩٧	حصن العدل
٩٩	التعريف بالدنيا

الموضوع	الصفحة
الحقائق بعيداً عن الشكليات	١٠٥
حولها نددن	١٠٧
حفرتان	١١٠
العمل الخالص	١١٣
عندما يكون العلم لله	١١٥
أمير أم رسول	١١٩
درس في الإخلاص	١٢٣
إيثار	١٢٧
كنت أريده لنفسي	١٢٩
قوم المغيرة	١٣٤
أبو خيثة	١٣٦
الفقر الملتزم	١٣٩
أولويات	١٦٧
دستور الخلافة	١٦٩
ثوب الكعبة	١٧٧
أفضل من الحج	١٨٢
المطالب العالية	١٨٥
الخاتمة	١٩٢
المحتوى	١٩٥





في السنة المطهرة:

- الجامع بين الصحيحين (٥ مجلدات).
- الوافي بما في الصحيحين (مجلد).
- زوائد السنن على الصحيحين (٧ مجلدات).
- المرجع الجامع بين الموطأ والمسند (٤ مجلدات) تحت الطبع.
- تحقيق الجمع بين الصحيحين للموصلي (في مجلدين).
- العناية بالأدب المفرد للإمام البخاري.

في السيرة النبوية الشريفة:

- من معين السيرة.
- من معين الشمائل.
- من معين الخصائص النبوية.
- السيرة النبوية (تربية أمة وبناء دولة).
- تحقيق المواهب اللدنية للقسطلاني (٤ مجلدات).
- أضواء على دراسة السيرة.

- أهل الصفة (بعيداً عن الوهم والخيال).
- الغرائق (قصة دخيلة على السيرة النبوية).
- المهذب من الشفا، للقاضي عياض.
- سيرة النبي ﷺ في بيته.

في الرقائق والأخلاق:

- مواظب الصحابة.
- المهذب من إحياء علوم الدين (في مجلدين).
- تهذيب حلية الأولياء (٣ مجلدات).
- سلسلة مواظب السلف (١٥) عدداً.
- تحقيق رسالة «شرح المعرفة» للمحاسبي.

مشروع تقريب تراث الإمام ابن القيم:

- تقريب طريق الهجرتين.
- الوابل الصيب.
- سيرة خير العباد.
- البيان في مصادب الشيطان.
- القضاء والقدر.
- قل انظروا.
- فضل العلم والعلماء.
- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية.
- الهدى النبوي في العبادات.
- الهدى النبوي في الفضائل والآداب.
- الروح.

- طب القلوب .
- المهذب من مدارج السالكين .
- إعلام الموقعين (تحت الطبع) .
- الجواب الكافي (تحت الطبع) .

موضوعات أخرى:

- محبة الله ورسوله شرط في الإيمان .
- رضيت بالإسلام ديناً .
- الظاهرة الجمالية في الإسلام .
- ميادين الجمال .
- التربية الجمالية في الإسلام .
- الفرائض فقهاً وحساباً .
- الفن الإسلامي .
- نظرات في هموم المرأة المسلمة .

